مقدمة

سر المعمودية هو دعامة الكنيسة، ومن الأركان الأساسية في المسيحية. وهذا السر له ضروريته الخلاصية فى ممارسة الحياة الكنسية، يقول عنه بولس الرسول: "إن الله قد اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه إذ سبق وعيننا للتبني قبل إنشاء العالم".

وسر المعمودية هو السر الوحيد من أسرار الكنيسة، الذى يذكره قانون الإيمان النيقاوي . القسطنطيني، الأمر الذى يشير إلى أهميته ومكانته في حياة الكنيسة المسيحية منذ عصورها الأولى.

هذا الكتاب عن سر المعمودية هو مجموعة دراسات ومحاضرات، القاها أبينا الحبيب نيافة الحبر الجليل الأنبا أبرآم أسقف الفيوم، ورئيس دير الملاك غبريال بجبل النقلون، على طلبة الكلية الإكليريكية، وإجتماعات الخدام بالإيبارشية، والاجتماع العام الأسبوعى، وبعض النهضات الروحية. وهذا الكتاب ينشر ضمن مجموعات كتابات، تقوم لجنة النشر بمطرانية الفيوم – من الآباء الكهنة والشمامسة والمكرسات والاخوات – بتفريغ بعض المحاضرات، وإعداد المادة العلمية للنشر، للإستفادة من هذه المحاضرات القيمة، وقد بدأت لجنة النشر هذا العمل بمناسبة احتفال إيبارشية الفيوم باليوبيل الفضى

لسيامة أبينا نيافة الحبر الجليل الأنبا ابرآم أسقفاً لإيبارشية الفيوم (2 يونيه 1985 – 2 يونيه 2010م) طالبين من الرب أن يمنح نيافته موفور الصحة والقوة والنعمة فى خدمته المباركة. كما تشكر لجنة النشر كل من شارك فى إعداد هذا العمل، طالبين من الرب أن يعوض الجميع أجراَ سمائياَ.

لجنة النشر

الفصل الأول

مقدمة عن الأسرار

أسرار الكنيسة من أهم عقائد الإيمان المسيحى الأرثوذكسى، لأنها ذات علاقة قوية وجوهرية بخلاص النفوس وتطهيرها من شوائب الدنس والخطيئة. ولهذا أصبحت مكانتها فى أسمى المراكز. فأسرار الكنيسة هي القنوات التي نحصل بواسطتها على نعم وبركات الروح القدس. فإذا كانت الأسرار تُمارس ظاهرياً خلال الطقوس الإلهية، فهى تعطى نعم غير ظاهرة، أو غير منظورة من خلال ممارسة الطقس المنظور، بمادة أو علامة منظورة، على يد كاهن شرعى.

معنى كلمة "سر"

السر هو ما يفوق إدراك العقل البشرى، لكنه لا يناقض العقل. فالسر فى اصطلاح الكنيسة عملاً مقدساً به ننال نعمة غير منظورة تحت مادة أو علامات منظورة. وهو مرتب من الرب يسوع المسيح، لكى ننال به النعم الإلهية. وقد جاءت كلمة "**سر**" في الكتاب المقدس فى ثلاثة معان:

أولاً: تعنى كلمة سر العمل الذي يجرى في الخفاء، وهو ما ذكره القديس بولس: "لأن الأمور الحادثة منهم سراً ذكرها أيضاً قبيح" (أف5 :12). وهو ما ورد أيضاً عنه: "وعمل بني إسرائيل سراً ضد الرب إلههم" (2مل17 :9)[1].

ثانياً: إن كلمة سر تعنى الحقائق السرية غير المنظورة، أو أعمال الله غير المدركة. وهذا هو المعنى المُشار إليه في قول الكتاب: "سر الرب لخائفيه" (مز25 :14). وأيضاً قول الوحى: "يعلن سره لعبيده الأنبياء" (عا3 :11). وقول السيد المسيح: "لتعرفوا أسرار ملكوت الله" (مت13 :11). وهذا المعني استعملت كلمة "سر" عن أهم حقائق الخلاص الأساسية وهي: سر المسيح (كو3:4). سر بشارة الأمم (أف3 :2، كو1 :26، رو11 :25، رو16 :25)، سر تغيير الأجساد في القيامة (1كو15 :51)، سر مشيئته (أف1 :9)، سر اتحاد المسيح بالكنيسة (أف5: 32)، سر الإنجيل (أف6 :19)، سر الإيمان (1تي3 :9)، سر التجسد المجيد (1تي3 :16).

ثالثاً: العلامة الخارجية لحقيقة معنوية. هذا المعنى هو الذى يقصد به الرمز. فجاءت كلمات الكتاب المقدس فى هذا المعنى: "سر

[1] علي سبيل المثال يمكن الرجوع إلي الشواهد الآتية (1صم22 :14، صم23 :23، مت1 :19 ، يو11 :28، أع16 :37).

السبعة الكواكب التي رأيت ... هى ملائكة السبع الكنائس والمنابر[1] السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس" (رؤ1 :20). فقوله سر هنا، يعنى رمزاً. وبهذا المعنى استعملت الكنيسة كلمة سر اصطلاحاً لفرائضها التي ينال المؤمنون منها نعماً غير منظورة تحت علامات منظورة.

وجود الأسرار الكنسية:

هناك عدة دلالات علي وجود الأسرار تتلخص في الأمور التالية:

أولاً: الدلائل الكتابية

الكتاب المقدس نفسه شاهِدُ ناطِقُ علي وجود الأسرار الكنسية بكيفية لا تحتمل التأويل، وذلك بتصريحه بذكر وجود الأسرار في الكنيسة بوضوح. فى ذلك يقول الرسول بولس: "هكذا فليحسبنا الإنسان كخدام المسيح ووكلاء سرائر الله" (1كو4 :1). لذا سوف ندرس الدليل الكتابي لكل سر في عرضنا للأسرار.

ثانياً: الرموز

1منابر جمع منارة

لا يثبت الدليل الكتابى صراحةً فقط وجود الأسرار، ولكن الرموز التي جاءت عنها بالعهد القديم تعطي دليلاً قاطعاً عليها. فلكل سر من الأسرار رموزه الكثيرة في العهد القديم التي كانت بمثابة إعداد للذهن البشرى لقبول عقيدة الأسرار في العهد الجديد.

ثالثاً: شهادة التقليد

يشهد التقليد بوجود الأسرار بما ورد فى تصانيف الآباء من الأقوال العديدة التى تشير إلي الأسرار. وهى في مجموعها تقدم دليلاً واضحاً على وجود عقيدة الأسرار السبعة منذ نشأة الكنيسة. في ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "أيها المسيحي ... لو كنت عارياً من الجسد لكانت عطايا الله تُمنح لك على هذا النمط، ولكن حيث أن نفسك متحدة بجسدك، فقد صار لازماً أن يقدم لك الله بعلامات محسوسة ما لا يدرك إلا بالعقل".

وقد أسهب الآباء في كتاباتهم عن الأسرار وأهميتها وفاعليتها ووجوب إقامتها في الكثير جداً من أقوالهم مما سنعرض له في دراستنا لكل سر.

رابعاً: شهادة التاريخ

يشهد التاريخ عن وجود الأسرار الكنسية، بما يثبته من اهتمام الكنيسة منذ تأسيسها بممارسة الأسرار على أساس الاعتقاد بضرورتها وفاعليتها. وقد شهد للأسرار كثير من المؤرخين في القرون الأولي للمسيحية، مثل المؤرخ الوثني "بيني" في القرن الثاني. والمؤرخ اليهودى موسهيم.

كما يدخل فى إطار الشهادة التاريخية للأسرار، شهادة الآثار وتتمثل فى وجود المذابح المقدسة، وأجران المعموديات فى الكنائس القديمة، التي ترجع إلي القرون الأولى للمسيحية بما في ذلك كنائس العالم أجمع شرقاً وغرباً.

خامساً: شهادة الاتفاق العام

تتفق كل الكنائس التقليدية (الأرثوذكس اللاخليقدونيين، والأرثوذكس الخليقدونيين (الروم الأرثوذكس) وكذلك الكنيسة الكاثوليكية، علي وجود الأسرار الكنسية، وأهميتها الخلاصية. بل أن الكنائس غير التقليدية (الكنائس الإنجليكانية والبروتستانتية) وإن اختلفوا فى تحديد عدد الأسرار، وأهمية فاعليتها، إلا أن هذا الاتفاق دليل قاطع علي وجود الأسرار[1]. فمن مؤسسى الكنائس البروتستانتية، مارتن لوثر كان يؤمن بثلاثة أسرار هي المعمودية والشكر والتوبة.

1 طائفة "البليموث" لا تعترف بوجود الأسرار عموماً.

وزونجلى سلم بسر الزيجة. فإجماع هؤلاء على وجود الأسرار إنما هو لدليل على شهادة الضمير الداخلي بصدق عقيدة الأسرار ووجودها.

شروط إتمام السر الكنسي:

لكل سر من الأسرار السبعة ثلاثة شروط واجبة ولازمة لإتمامه. فمادة كل سر هى مادة ملائمة لإتمام السر، كالماء فى المعمودية، والخبز والخمر فى سر الإفخاريستيا، والزيت لمسحة المرضى، وهكذا. كما يستلزم إتمام السر كاهن مشرطن (تعنى وضع اليد) والمقصود وضع باليد هنا، هى اليد الرسولية، أى بالتسلسل الرسولى.

كما أن هناك صلوات طقسية يتلوها الكاهن مرتبة ومدونة في الكتب الخاصة بالخدمة الطقسية، وعن طريق هذه الصلوات، يتم استدعاء الروح القدس الذي يعمل فى الأسرار الكنسية. لذلك يجب إتمام الأسرار بطريقة قانونية حسب الترتيب المعطى من الله مخلصنا الصالح الذي أسسها ورتبها، ووضع لكل سر مادته الملائمة. والصلوات اللازمة الخاصة بكل سر، والتي وضعها الآباء بإرشاد الروح القدس.

عمل الروح القدس في الأسرار

الروح القدس منذ أن حل على الكنيسة في يوم الخمسين، هو يعمل فيها، حسب وعد المسيح (يو14 :16، 17). والروح القدس يعمل في الكنيسة عن طريق الأسرار، ويمنحنا هباته وبركاته ومعوناته ويرشدنا إلي طريق الحق كقول السيد الميسح: "أما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شئ ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يو14 :26).

عدد الأسرار السبعة

تعتقد الكنائس الأرثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية – بناء على شهادة التقليد– أن عدد الأسرار سبعة. أما الكنائس الأخرى غير التقليدية، فلم تقبل هذا العدد، بل اختلفت فيما بينها في الأخذ ببعض الأسرار، ورفض البعض الآخر.

أما عن كون الأسرار أنها سبعة، فيشير الكتاب المقدس على فم سليمان الحكيم، عن الحكمة (أي السيد المسيح): "الحكمة بنت بيتها (الكنيسة) نحتت أعمدتها السبعة (أي الأسرار) (أم9 :1). كما أن الرب يسوع المسيح هو الذى أسس هذه الأسرار السبعة، ولم يوجد أسرار كنسية أخرى قد قام بتأسيسها.

أما عن رقم سبعة، فهو أكثر الأرقام ظهوراً في الكتاب المقدس. فهو بجانب أنه يشير إلى الكمال. نجد أن يشوع بن نون حطم أسوار أريحا، بعد أن دار حولها سبعة أيام، وفى اليوم السابع دار سبع مرات. فرقم سبعة يشير إلى هدم كل معاقل الشيطان. كما توجد إشارة أخرى للعدد سبعة، هى سبعة مواهب الروح القدس (أش11 :2 ،3) التي تُمنح للمؤمنين بأسرار الكنيسة السبعة. كما أن العدد سبعة أيضاً يشير إلي الحياة الأبدية، ففي اليوم السابع استراح الله من عمله. كما أنه ذُكر رقم سبعة في سفر الرؤيا "سفر الحياة الأبدية" أكثر من خمسين مرة. فمن الواضح أننا لا يمكن أن ننال الكمال أو الحياة الأبدية بعيداً عن الأسرار الكنسية، لاسيما الأسرار اللازمة للخلاص (المعمودية – الميرون – التوبة والأعتراف – الإفخاريستيا).

ترتيب الأسرار السبعة في الكنيسة

ترتب الأسرار فى الكنيسة على النحو التالى (المعمودية – الميرون – الافخارستيا – التوبة والاعتراف – مسحة المرضي– الزيجة – سر الكهنوت). والسبب فى ترتيب الأسرار هكذا هو أن المعمودية هي باب الأسرار وبدونها لا يمكن نوال استحقاقات الفداء، والكهنوت وًضع فى نهاية ترتيب الأسرار، لأنه تاج الأسرار ومتتمها، فبدونه لا يتم أي سر. كما أن الميرون بعد المعمودية لأن آباءنا الرسل كانوا يضعون الأيادي بعد العماد مباشرة (لأن الذي غُرس في

جسد المسيح بالمعمودية يحتاج إلي مواهب الميرون للتثبيت في الطبيعة الجديدة) والذي ولُد في المعمودية وتثبت بالميرون يجب عليه أن يتغذى من خبز الحياة في سر الافخارستيا. كما وضُِع سر التوبة والاعتراف بعد سر التناول للمسارعة للحفاظ علي النعمة التي أخذها لتحيا نفسه طاهرة، كما أن شفاء النفس يؤدي إلي شفاء الجسد، لذلك وُضع سر مسحة المرضي تابعاً لسر التوبة والاعتراف. ثم بعد ذلك سر الزيجة لولادة أعضاء في الكنيسة بالجسد، ثم الكهنوت لولادة الأعضاء الروحيين ولإقامة الأسرار وانتشار الكنيسة.

فاعلية الأسرار وجوهرها

ليست الأسرار مجرد طقوس خارجية يتميز بها المسيحي عن غيره، إنما هي ممارسات مقدسة تهب وتمنح النعمة الإلهية فعلياً للمتقدمين إليها. ويتم بواسطتها عمل هذه النعمة فينا، وفاعلية الأسرار هى سرية وقوية في الكيان الإنساني، حتى وإن لم يستطع الإنسان رؤيتها بالعين المجردة، فهي تفوق الإدراك لأنها مؤسسة من الله ومن خلالها ننال فيض النعمة الإلهية الحقيقية.

تقسيم الأسرار الكنسية

تقسم الأسرار الكنسية إلى أسرار لازمة للخلاص، وهم سر المعمودية، سر الميرون، سر التوبة والاعتراف، سر الشكر أو الإفخارستيا. وهذه

الأسرار لازمة وواجبة على كل مؤمن أن يمارسها، لأنه بدونها لا يمكن دخول ملكوت السموات.

كما أن هناك أسرار ضرورية لعمل الرب داخل الكنيسة وتشمل (سر مسحة المرضى، سر الكهنوت، سر الزيجة) وهذه الأسرار ليست لازمة أو ملزمة لجميع المؤمنين. فليس كل إنسان ملزم أن يتزوج، أو ينال نعمة الكهنوت.

كما أن هناك **أسرار واسمة**، أى لها علامة روحية تنطبع في النفس ولا تُمحى. هذه الأسرار هي سر المعمودية، الميرون، الكهنوت. وهذه الأسرار لا تُكرر. أما بقية الأسرار غير واسمة وهى الافخارستيا – الزواج – مسحة المرضى، وهذه الأسرار يمكن تكرارها.

كما قسم البعض الأسرار الكنسية إلى ثلاثة أقسام هى على النحو التالى:

- **أسرار علاجية:** مثل المعمودية وسر التوبة والاعتراف وسر مسحة المرضي.
- **أسرار وقاية:** سر الميرون، سر الزيجة للتحصين ضد حروب الشياطين والجسد.
- **أسرار للتثبيت والتقوى:** وهما سر الافخارستيا، سر الكهنوت.

إتمام وفاعلية السر لا تتعلق بشخصية خادم السر

تعلم الكنيسة الأرثوذكسية أن إجراء الأسرار لا يتم إلا علي يد الخدام الذين تمت رسامتهم رسامة كهنوتية قانونية. كما تعلم أن إتمام السر وفاعليته لا تتوقف على حياة الكاهن الشخصية، فهى لا تتعلق بفاعلية الأسرار. وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول: "فمن هو بولس ومن هو أبلوس ... أنا غرست وأبلوس سقى، ولكن الله كان ينمي. إذاً ليس الغارس شيئاً ولا الساقي بل الله الذي ينمي" (1كو3 :5).

كما أن السيد المسيح يقول لتلاميذه: "علي كرسي موسي جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوه لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا" (مت23 :2، 3). كما أن الإنجيل المقدس يذكر أن قيافا رئيس كهنة اليهود، على الرغم من كونه رجلاً شريراً، وكان رئيس كهنة فى هذه السنة، إلا أنه تكلم بروح النبوة. ويشهد فى ذلك القديس يوحنا قائلاً: "**وَلَمْ يَقُلْ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ عَنِ الأُمَّةِ**" (يو11 :49). كما نجد فى العهد القديم بني قورح، رغم أنه كانوا أشراراً وقدموا ناراً غريبة، إلا أن الكتاب المقدس يشهد أن مجامرهم قد تقدست بصلاتهم (عد 16).

وقد علم الآباء بخصوص هذا الأمر يقول أحد الآباء: "إن السر يتعلق بالله وما الإنسان إلا خادم بسيط فان كان الإنسان صالحاً فيكون موافقاً لله ويعمل بالله. وإن كان شريراً فالله يمنح به أيضاً نعمته غير المنظورة كما بآلة. ولا تظنوا أن الأسرار تتعلق بآداب البشر وأعمالهم فالأسرار مقدسة ونابعة من الله القدوس".

كذلك أيضاً أنه: "لا فرق بين توزيع الأسرار من خدام أبرار، أوخطاة. فمثلها مثل البذور تُلقي في الأرض بيد الفلاح، سواء كانت يده نظيفة أو غير نظيفة. فتأتى بالثمرة على حد سواء، ولو تعلقت فاعلية الأسرار بقداسة الخادم أو عدمها لتعلق خلاصنا بحريتهم.

كما يقول القديس أغسطينوس: "كل واحد مستحق أن تصدقوا أنه يطهركم، ويكفيه أن يكون واحداً من الذين أخذوا السلطان ليغفروا الخطايا ولم يصيروا مرفوضين علانية (من الكنيسة)".

ويقول أيضاً: "عندى خاتمان أحدهم من ذهب والآخر من حديد، وعلي كل منهما الصورة الملكية نفسها. فأطبع بكل منهما طبعة علي شمع، فبماذا تمتاز طبعة الواحد على طبعة الآخر. إنها لا تمتاز بشئ".

ويقول القديس غريغوريوس الثاولوغوس: "وهناك مثل توضيحي كمن يشرب الماء في إناء من ذهب وآخر يشربه في إناء من فضة،

ففي كلتا الحالتين الماء واحد ولا تأثير لنوع المعدن على الماء الذي يحتويه، هكذا أيضاً بالنسبة لخادم الأسرار (الكاهن) في بره أو شره. وان كان السر بفاعليته وقوته لا يتأثر بصلاح الكاهن أو العكس، فعلي الكاهن الذى يباشر خدمة السر أن يكون بقدر المستطاع منزهاً عن الخطأ، طاهر الروح والجسد، مؤمناً بصدق ما يباشره، لأنه يُشترط في الوكيل أن يكون مماثلاً للأصيل، وإلا فسوف يُعرض نفسه لدينونة رهيبة.

أما بالنسبة للذى يقبل السر فيقول القديس كيرلس الأورشليمي: "لو كان سر الإفخارستيا يتوقف كماله علي إيمان المُشترك (القابل للسر) لكان المشتركون بغير استحقاق لا يلحقهم شئ من الدينونة، لأنهم بعدم إيمانهم يكونون اشتركوا في خبز بسيط، وخمر بسيط ليس إلا".

الرد على الاعتراضات الخاصة بالتعليم بفاعلية الأسرار.

- **الاعتراض الأول:** تعارض التعليم مع ما يسلم به الكتاب المقدس من أن مواهب الروح القدس تنالها النفس قبل ممارسة الأسرار. وفي هذا يعتمدون على حادثة اختيار الشمامسة السبعة (أع6: 3) من أنهم كانوا مملوءين من الروح القدس قبل أن يوضع عليهم الأيادى.

الرد علي هذا الاعتراض نقول: أن الروح القدس له مواهب متعددة (رو12 :6) ، (1كو12 :4). بعض هذه المواهب لبنيان الحياة الشخصية، والبعض الأخر لأنواع الخدمة المتنوعة. فالمواهب التى كانت لهؤلاء الشمامسة السبعة قبل أن توضع عليهم الأيادى، إنما كانت متعلقة بحياتهم الشخصية، لا بخدمتهم. وهذه المواهب هى غير ما حصلوا عليه بوضع الأيادى من أجل القيام بالعمل المنوطين به من قِبَل الكنيسة. وكمثال لهذا الأمر، قول القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس: "فلهذا السبب أذكرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يدي" (2تي1 :6).

- **الاعتراض الثانى:** يعترض البعض أن هناك تناقض فى التعليم بفاعلية الأسرار، مع تعليم الكتاب المقدس من أن نوال النعم الخلاصية هو أمر متعلق بالإيمان بشخص الرب يسوع وحده. كما يعتمد المعترضون علي بعض أجزاء من الآيات كقول القديس بولس الرسول لسجان فيلبى: "آمن فقط بالرب يسوع تخلص أنت وأهل بيتك" (أع16 :31).

للرد علي هذا الاعتراض نقول: إن معلنات الكتاب المقدس لا نحصل عليها من الاستناد على آياته منفصلة، بل لابد من جمع الآيات فى هذه العقيدة مجتمعة. والدليل علي ذلك الآيات الكثيرة التي تدل علي لزوم المعمودية للخلاص. فعماد سجان فيلبى نفسه، وكل

أهل بيته يدل دلالة واضحة علي لزوم الإيمان مع المعمودية للخلاص.

- **الاعتراض الثالث:** يعترض البعض أن التعليم بعقيدة فاعلية الأسرار فى الخلاص يبطل قيمة النعمة، وينسب القوة للمادة، ويعلق عليها المواهب الروحية.

للرد علي ذلك نقول: إن اعتقاد الكنيسة لا يتضمن التعليم بأن المادة في ذاتها ينبوع للنعمة، ولكن تعلم أيضاً بأن المادة ما هي إلا علامة منظورة، لنوال النعمة غير منظورة. وإن المادة في السر لا تكتسب هذه الصفة إلا بعد تقديسها بالصلاة والكلمة، على أساس الإيمان بشخص الرب يسوع المسيح. فلو كانت الكنيسة تعلم فقط بأن المادة هي مصدر النعمة، ما كان هناك حاجة إلي الصلوات، ولا لقراءة كلمة الله على المادة لتقديسها. **في هذا يقول القديس غريغوريوس النيسى:** "... وإن كان الماء ليس شيئاً آخر إلا ماء، لكنه إذ يتقدس من فوق بالنعمة، فيجدد الإنسان بالتجديد الروحاني". وهذا توضيح أن القوة ليست في مادة الماء المجردة، ولكنها في تقديس الماء من فوق بالنعمة. وهذا يتضمن فى معناه اعتبار النعمة هى الأساس لتقديس المادة.

- **الاعتــراض الرابــع:** يعتـرض الـبعض أن التعلـيم بعقيـدة فاعليـة الأسرار يقلل من قيمة الإيمان.

للرد علي هذا نقول: إن عقيدة فاعلية الأسرار لا تتضمن قط التعليم بأن الإيمان لا قيمة له لنوال مواهب الروح القدس. بل علي العكس تحفظ للإيمان مركزه وأهميته، إذ هو تعلم يفيد أن الإيمان هو أساس نوال النعم المرتبطة بالأسرار.

- **الاعتـراض الخـامس:** يعترض البعض أن التعليم بعقيدة فاعلية الأسرار يقود إلـي ضمان الخـلاص بمجرد تأديـة طقوس معينـة، بغض النظر إلي الحياة الروحية الداخلية للمؤمن.

للرد علـي هـذا نقـول: الكنيسة الأرثوذكسية إن كانت تعلم بضرورة الأسرار ولزوم ممارستها من أجل نوال الخلاص، فهي لا تعلم بأن كل من مارس الأسرار حصل علي الغاية منها. بل علي العكس تعلم بأن من لا يمارس الأسرار علي أساس التقوى والإيمان، فلا يحصل على الغاية منها فقط، بل علي العكس ينال عوضها دينونة لنفسه.

- **الاعتراض السادس:** يعترض البعض أن هناك كثيرين نالوا نعمة الخـلاص، ومواهـب الـروح القـدس دون ممارسـة الأسـرار، أمثـال اللص اليمين، وأنبياء العهد القديم.

للرد علي هذا الاعتراض، نقول: بالنسبة للص اليمين قد نال نعمة سر المعمودية. لأن المعمودية هى موت وقيامة مع المسيح (رو6). فاللص اليمين قد مات مع المسيح فعلاً. كذلك أيضاً معمودية الدم التي نالها الشهداء الذين أمنوا بالسيد المسيح. أما بالنسبة لأنبياء العهد القديم، ومن رقد معهم علي رجاء القيامة، فنقول أنه لو كانت الأسرار موجودة في أيامهم لكان يلزمهم إتمامها. فوجود الأسرار في المسيحية لأنها مؤسسة على موت المسيح وقيامته. فأنبياء العهد القديم قد مارسوا رموز الأسرار كالختان، وعبور البحر الأحمر، والمن. ولا يجوز أن نطالب أشخاصاً بشريعة لم تكن في أيامهم.

- **الاعتراض السابع:** عقيدة فاعلية الأسرار تؤول إلى سلب المجد من الله، ومنحه للإنسان.

للرد علي هذا نقول: أن عقيدة فاعلية الأسرار لا تتضمن قط اعتبار الإنسان أساساً لنوال النعم الإلهية، ولكنها على العكس تعلم بأن الله هو الفاعل في الأسرار، والمانح للمواهب المرتبطة بها. وما الخادم إلا واسطة لإجراء خدمة الأسرار. في هذا يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "لأن النعمة ليست من بشر لكن من الله بواسطة البشر" (عظة17 :35). ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "هذه هي الشرطونية كلها إذ توضع اليد علي رأس الرجل، والله يفعل كل شئ"

(مقالة3:14، 15). ويقول القديس أثناسيوس الرسولى: "إن عمدنا وإن ثبتنا ... فإن المسيح هو علة هذا كله وفاعله" (رسالة 2 :7).

كما أننا نرى في كل خدمة الأسرار بلا استثناء، نرى الصلوات الموضوعة لها تُقدم باسم يسوع المسيح. وهذا معناه أن الكنيسة المقدسة تعتقد بأن ما ينالـه المؤمنون من النعم والبركات بواسطة الأسرار، إنما ينالونه بالمسيح وفي استحقاقه. **كما يقول الأسقف في رسامة الشمامسة:** "وليس النعمة تُعطى بوضع أيدينا نحن الخطاة، ولكن بافتقاد رأفتك الغنية الممنوحة لمستحقيها".

وعن تعميد فيلبس الشماس لأهل السامرة باسم الرب يسوع ومجئ بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس وذلك حينما وضعا الأيادي عليهم (أع 8) يقول القديس كيرلس عامود الدين: "ليس لأحد ولا حتى الرسل السلطان الشخصي لإعطاء الروح القدس فهذا هو سلطان الرب يسوع وحده، وأن الرسل عندما ذهبوا لأهل السامرة لم يعطوهم الروح القدس بسلطان شخصى، ولكنهم صلوا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس. أى لكى يرسل السيد المسيح الروح القدس، وبعد ذلك وضعا عليهم الأيادي لينالوا الروح القدس".

كما أن الكتاب المقدس يعطى تعليم واضح على أن النعم تُمنح بواسطة وكلاء الأسرار الإلهية (رجال الكهنوت) من البشر. فالقديس

بولس الرسول يقول: "لأنى مشتاق أن أراكم لكى أمنحكم هبة روحية لثباتكم" (رو1 :11). وفي موضع آخر يقول: "لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل" (1كو4 :15). كما يذكر في موضع ثالث: "صرت للكل كل شئ لكي أخلص علي كل حال قوماً" (1كو9 :22). فإذا كان الوحى لم يمنع اعتبار البشر وسائط لحصول المؤمنين علي نعم الروح القدس اللازمة للخلاص، فلا يحق لنا نحن أن نقاوم هذا التعليم أو نعترض عليه.

- **الاعتراض الثامن:** عقيدة فاعلية الأسرار تقود إلي التسليم بما لا يتفق مع المعقول. فيقولون في اعتراضهم، أن العقل الصحيح لا يستطيع أن يفهم كيف أننا بالماء نولد ولادة جديدة، وكيف يكون التناول من خبز وخمر، قبولاً لجسد ودم الرب يسوع المسيح بعينهما.

للرد علي هذا الاعتراض نقول: أن المسيحية قلب وعقل، فإن حقائق الإيمان المسيحى نقبله بالإيمان، وندركه بالمعرفة، وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول: "إنموا فى النعمه وفى معرفة ربنا يسوع المسيح" (1 تيمو). فإذ رفضنا التسليم بعقيدة فاعلية الأسرار، بحجة أن العقل لا يقرها فإن هذا يقودنا حتماً لخطر عظيم وهو إنكار حقائق الإيمان المسيحي بأسرها. فعقيدة التجسد وميلاد السيد المسيح من الروح القدس، وعقيدة الفداء، كلها أمور لا ندركها بالعقل بل بالإيمان.

وفى هذا يقول القديس غريغوريوس النيسى: "وإن ارتاب أحد وسألني بغير فتور محاججاً إياى كيف يعيد الماء الولادة ؟!. فأقول له بإيمان حسن ... فسر لى كيف تدرك الولادة الجسدانية، وحينئذ أقول لك أنا أيضاً كيف تكون الولادة الروحانية؟!".

الفصل الثانى

سر المعمودية

(تأسيسه . رتبه . ألقابه)

سر المعمودية سر مقدس به نولد ميلاداً ثانياً روحانياً، وهو سر الميلاد الجديد من الله، وأول سر رسمه ربنا يسوع المسيح ليكون باباً للأسرار، يدخل منه المؤمن إلى مملكة المسيح. والمعمودية تتم بالتغطيس فى الماء المقدس بالصلوات والميرون ثلاث مرات على اسم الثالوث القدوس، الآب والابن والروح القدس.

المعمودية هي الميلاد الجديد الذى يعيد الإنسان إلى الحياة السمائية، فالمعمودية توحد المؤمن مع المسيح إذ تمنحه مشاركة المسيح في موته وقيامته، وتطهره من خطاياه وتهبه الخلاص. وتسمي بالمعمودية لأنها عماد (أساس) وهي مأخوذة من الكلمة السريانية (عمد) وتعني حرفياً (بل بالماء). كما تسمي (الصبغة) (Todye)، لأنها تصبغ قابلها بصبغة المسيح بالروح القدس "لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا" (مت20: 22) وفي اليونانية (بابتزما) أى يصبغ بإمعان، وينتظر حتى كمال تشرب الملابس بالصبغة. وهو ما يعبر عن فاعلية المعمودية في النفس

البشرية، كالثوب القديم الباهت، الكالح اللون. الذى يخرج من وعاء الصبغة جديداً وزاهياً. وتسمى في القبطية (oms) أى التغطيس أو الغسل أو الحميم، وفي العبرية (عمد) (amad) بمعنى وقف أو قام.

كما تدعى المعمودية الولادة الثانية، كقول الرب يسوع لنيقوديموس: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3:3)، ويقول العلامة ترتلياس: "نحن كالسمك الذى يولد فى الماء. ونخلق علي مثال اسم المسيح[1]. كما يسميها القديس كيرلس الأورشليمى "**الميلاد الثانى للنفس**". ويسميها القديس غريغوريوس النزينزى: "الاستنارة وثياب عدم الفساد وحميم الميلاد الجديد"[2].

كما تسمى المعمودية (باب الأسرار) لأنها تؤهل المُعمَّد لنوال نعم الله في الأسرار الأخرى. ومن المُسلم به أن الكنائس التقليدية تؤمن أن الليتورجيا المسيحية لا تحقق معناها وفعاليتها في الكنيسة إلا

---

[1] لأن كلمة سمكة في اليونانية هى تجميع للحروف الأولي لعبارة" يسوع المسيح ابن الله مخلصنا".

[2] هو نفس المعني الذي ورد في القرآن حيث تقرأ في سورة البقرة ما نصه: ''صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون'' وقد فسرها الإمام البيضاوي بقوله: ''إن الله تعالى قد صبغنا، أو هدانا. وظهر أثره ظهور الصبغ علي الثوب''.. ويضيف بقوله: ''إن النصارى (المسيحيين) يغمسون أولاد هم فى ماء أصفر (به قطرات من الزيت المقدس) يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم (ولهذا لا يزال العامة في مصر يقولون عن العماج أنه ''التنصير'' وأحد التناصير).

بالمعموديـة ومـن خلالهـا. لـذلك يقـول القـديس يعقـوب السـروجي: "المعمودية هي الطريق العظيم إلى بيت الملكوت، يدخل الذى يسير فيـه إلـى بلد النـور" بالنظر إلـى نتائج سـر المعموديـة غير المنظـورة دعـاه الآبـاء: ولادة جديـدة، وتقديسـاً، وخـتم الإيمـان، وخـتم الـدين المسيحى، وحميم الخلاص، والولادة الثانية، حميم الحياة وماء الحياة الدائمة ... إلخ. من الأسماء الدالة على تأثيراته ومنحه.

تأسيس سر المعمودية

سر المعموديـة أسسـه السيد المسيح بعمـاده فـي نهـر الأردن مـن يوحنـا المعمَّـدان (مـت3: 13-17). ثـم أكـده الـرب يسـوع بعـد قيامتـه حينما قال لتلاميذه: "فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً:"دُفِعَ إِلى كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ. فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالاِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت28: 18. 19). ويذكر القديس مرقس قول السيد المسيح: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16). وفي حديث السيد المسيح مع نيقوديموس يقول "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3: 5).

فمن ثم يتبين أن:

1. المعمودية سر عام لجميع البشر، على السواء، يقبلونه عقب الإيمان بشخص الرب يسوع المسيح كمخلص وفادٍ.
2. المعمودية سر يمارس في حياة الكنيسة علي الأرض حتى انقضاء الدهور، وغير محصور فى مكان ولا فى زمان.
3. المعمودية شرط لازم وضرورى للحصول على الخلاص، فقد قال القديس بطرس الرسول: "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (اع2:38-41).

إن سر المعمودية قد ارتسم منذ وقت عماد ربنا يسوع المسيح. أما الالتزام به، وبقبوله، فلم يُناد به إلا بعد موته وقيامته المجيدة كما ورد على فم الرب يسوع: "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالاِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت28: 19). وذلك لسببين:

- لأن الأسرار العتيقة لم تنته، ولم تبطل إلا حال موت السيد المسيح، فالنظام اليهودى ظل قائماً طيلة حياته المقدسة على الأرض، وقد أكد رب المجد، هذا النظام ومارسه، حيث لم يترك شيئاً من فرائضه. لذلك لم يلتزم الناس بالمعمودية التى هي عوضاً عن الختان إلا بعد موته وقيامته.
- لأن الإنسان بعماده يماثل موت السيد المسيح وقيامته، من حيث أنه بهذا السر الإلهى يموت الإنسان العتيق، ويقوم بحياة البر

الجديدة. لذلك وجب أن يموت المسيح أولاً ويقوم من بين الأموت، ثم يلتزم الناس بأن تماثله في موته وقيامته.

رتبة المعمودية بين الأسرار

المعمودية من حيث مباشرتها طقس، ولكن من حيث الإيمان بمعناها وأهميتها وضرورتها وفعاليتها عقيدة.

لسر المعمودية المرتبة الأولى بين أسرار الكنيسة السبعة، لأنه تُمثل الباب الذى يدخل منه المؤمن إلى الكنيسة، ويصبح عضواً فيها، وابناً من أبنائها، لذلك يمنح هذا السر للمؤمنين قبل كل الأسرار الكنسية الأخرى. لذلك المؤمن الذى يقبله هو الذى له الحق في الاشتراك في باقى الأسرار.

وسر المعمودية هو السر الوحيد من أسرار الكنيسة، الذى يذكره قانون الإيمان النيقاوي. القسطنطيني، الأمر الذى يشير إلى أهميته ومكانته في حياة الكنيسة المسيحية منذ عصورها الأولى.

أسماء وألقاب سر المعمودية

سر المعمودية له عدة تسميات تشرح فعل المعمودية، وعملها الذي يكمل بها. هذه الألقاب هي على النحو التالى:

1. **مركبة السماء:** يقول القديس كيرلس الأورشليمى (315–386م): "عظيمة هي المعمودية المعدة فداء عن المأسورين مركبة إلى السماء، ونعيم الفردوس، وسبباً للملكوت ومنحة التبني".

2. **فداء المأسورين ووسيلة تجديد الطبيعة البشرية:** يدعو القديس باسيليوس الكبير المعمودية أنها: "فدية المأسورين، وصفح الأوزار وموت الخطية، وإعادة ولادة النفس ... وختم لا يزول، ومركبة إلى السماء تؤدى إلى الملكوت، ومنحة التبنى". يقول القديس يوحنا ذهبى الفم أنها وسيلة تجديد لطبيعتنا البشرية: "وعلى ذلك المنوال فى العماد، بواسطة الماء، وهو حقيقة حسية تُعطى النعمة، وعلى وجه روحي الميلاد الجديد، تجديد طبيعتنا".

3. **تجديد الروح القدس:** يقول الرسول: "لاَ بِأَعْمَالٍ فِي بِرٍّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغَسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تى3:5).

4. النعمة – النعمة الروحية، نعمة الإنارة، الاستنارة: يقول القديس الفيلسوف اكليمنضس الإسكندري: "يُدعى هذا الفعل (المعمودية) بأسماء كثيرة: نعمة – استنارة – كمالاً – حميماً (غسل الماء). "فهو حميم (ماء) لأننا به نغسل خطايانا، ونعمة إذ به نترك عقوبات خطايانا واستنارة إذ به يُرى ذلك النور المقدس الخلاصي، أعنى أننا نشخص بها إلى اللاهوت، والكمال لأنها لا تحتاج إلى شيء ... إذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نتبنى، وإذ نتبنى نكمل، وإذ نكمل نصبح

غير مائتين". ويقول القديس بولس الرسول: "لأَنَّ الَّذِينَ اسْتُنِيرُوا مَرَّةً، وَذَاقُوا الْمَوْهِبَةَ السَّمَاوِيَّةَ وَصَارُوا شُرَكَاءَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَذَاقُوا كَلِمَةَ اللهِ الصَّالِحَةَ وَقُوَّاتِ الدَّهْرِ الآتِي، وَسَقَطُوا (عن نعمة الله)، لاَ يُمْكِنُ تَجْدِيدُهُمْ أَيْضاً لِلتَّوْبَةِ، إِذْ هُمْ يَصْلِبُونَ لأَنْفُسِهِمُ ابْنَ اللهِ ثَانِيَةً وَيُشَهِّرُونَهُ" (عب6:4–6). معنى هذا إن الذين يرتدون بعد حصولهم على المعمودية لا يمكن أن تعاد معموديتهم لأن المعمودية المسيحية واحدة. وفي ذلك يقول القديس يوستينوس الشهيد: "هذا الحميم يُسمى استنارة لأن عقول الذين تعلموا هذه الأشياء استنارت".

5. **حميم (غسل الماء)**: يقول مار بولس:"أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضاً الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا،. لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّراً إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ" (كلام الله) (أف5:25،26).

6. الحُلة الأولى – حُلة العرس – رداء البر وثياب الخلاص: فالمعمودية هي الحُلة الأولى، وتسمى الأولى من حيث أوليتها أى مكانتها وقيمتها، لا من حيث أن هناك حُلة أخرى غيرها، إذ المعمودية واحدة لا تتكرر فإذا اتسخت نغسلها بدموع التوبة، ولذلك قال الآباء: "إن التوبة معمودية ثانية"، أَخْرِجُوا الْحُلَّةَ الأُولَى وَأَلْبِسُوهُ، وَاجْعَلُوا خَاتَمًا فِي يَدِهِ، وَحِذَاءً فِي رِجْلَيْهِ" (انظر لوقا15:22).

كما أنها حلة العرس: "فَلَمَّا دَخَلَ الْمَلِكُ لِيَنْظُرَ الْمُتَّكِئِينَ، رَأَى هُنَاكَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لاَبِسًا لِبَاسَ الْعُرْسِ. فَقَالَ لَهُ: يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ الْعُرْسِ؟" (مت22:11–12) بها نستحق

أن نحضر عرس ابن الملك، أى ندخل ملكوت السماوات: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو3:5). كذلك هى رداء البر وثياب الخلاص إذ بعد المعمودية ينال المُعمَّد بر المسيح أى الطبيعة الجديدة فيهتف قائلاً: "فَرَحًا أَفْرَحُ بِالرَّبِّ. تَبْتَهِجُ نَفْسِي بِإِلهِي، لأَنَّهُ قَدْ أَلْبَسَنِي ثِيَابَ الْخَلاَصِ. كَسَانِي رِدَاءَ الْبِرِّ" (أش61:10).

7. **غسل الخطايا:** يتبين هذا اللقب من قول القديس حنانيا الرسول لشاول الطرسوسى (بولس الرسول) بعد أن أبصر نور المسيح: "وَالآنَ لِمَاذَا تَتَوَانَى؟ قُمْ وَاعْتَمِدْ وَاغْسِلْ خَطَايَاكَ" (أع22:16). كما يقول القديس مار بولس: "ولقد كان بعضكم كهؤلاء (أشرار) ولكنكم قد اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا" (1كو6:11). كما يذكر أيضاً القديس بولس: "فلندنُ بقلب صادقٍ وإيمانٍ كاملٍ. وقد طهَّر الرشُ (دم المسيح) قلوبنا من ضمير شرير، وغَسَلَ الماءُ النقيُّ (المعمودية) أجسادَنا" (عب10:22).

8. **المياه الإلهية:** يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "إن معمودية النعمة (المعمودية الإلهية) تطهِّر كل إنسان سواء كان فاسداً أو زانياً، عابداً للأوثان أو غير ذلك، لأنه مهما كان غارقاً في الخطية فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الإلهية أنقى من أشعة الشمس عينها، وليس نقياً فقط بل قديساً بل باراً أيضاً، لأن الرسول لم يقل "اغْتَسَلْتُمْ" فقط بل قال: "بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ

يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا" (1كو6:11). ثم أنه فضلاً عن نوالنا بالمعمودية صفْح الخطايا والتنقية من المآثم، والمظالم (الشرور) فإننا نولد بعد المعمودية ولادة ثانية ونُخلق ونصور بها (أى اعادة الصورة الإلهية في الانسان).

9. **ختان المسيح:** يقول القديس بولس الرسول: "وفيه (في المسيح) أيضاً خُتنتم ختاناً ليس من فعل الأيدي بأن خُلِعَ عنكم جسدُ البشرية بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية التي فيها أيضاً أقمتم معه.." (كو2:11-14).

10. الختم الروحى، ختم لا يزول، الختم السماوى، الختم الإلهى، ختم الله، الختم المقدس: يدعو القديس أمبروسيوس سر المعمودية "ختماً روحياً". كما يقول عنه القديس باسيليوس الكبير: "المعمودية فدية المأسورين ... وختم لا يزول". ويذكر القديس كيرلس الأورشليمى: "إن الروح القدس في المعمودية يَسيمُ (السمة هي العلامة التي تترك أثراً) النفس ويمنحها ختماً ترتجف منه الشياطين خوفاً، ختماً سماوياً وإلهياً". وعند القديس ايرونيموس يقصد: "إن المعمودية هي ختم الله، وكما خُلق الإنسان الأول على صورة الله ومثاله، هكذا الذي يتبع الروح القدس يُختم منه ويأخذ صورة الخالق".

11. المعمودية هي الوسم[1]، الوسم الملكى، السمة السيدية (الإلهية): في ذلك يقول القديس أوغسطينوس: "إن المُعمَّد فى

[1] العلامة التي تطبع أي تترك أثراً

الكنيسة إذا تَرَكَ الكنيسة يُحرم من قداسة الحياة، ولكنه لا يُحرم من وسم السر". **كما يقول أيضاً:** "تمسَّك بما نلتهَ، فإنه لا يتغير، فهو وسم ملكي". **كما يذكر أن:** "فالسمة السيدية لا تُمحىَ البتة عن الذين ينالونها، ولا نعمدكم ثانية".

12. الميلاد الثانى، منحة التبنى، ولادة النفس، الولادة الثانية للنفس، إعادة ولادة النفس، الميلاد الجديد: فى ذلك يقول القديس ماربولس الرسول: "لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ - خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تيطس3:5).

عن أن المعمودية هي إستنارة ومنحة تبنى لله يقول القديس الفيلسوف اكليمنضس الإسكندري: "هذا الأمر عينه يحصل لنا أيضاً نحن الذين قد صار لنا المسيح مثالاً، فإذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نُتبنى، وإذ نُتبنى نُكمَّل". كذلك يسميها القديس كيرلس الأورشليمى: "منحة التبني وولادة ثانية للنفس، فيقول: "حينما تدخلون في الماء (ماء المعمودية) لا تجدون بعد ماءً بسيطاً بل تنتظرون خلاصاً بالروح القدس ... فيقول الكتاب: إن بطرس بعد هذه النعم الروحية كلها عمدهم (أى كرنيليوس وأهل بيته): "أَتُرَى يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ حَتَّى لاَ يَعْتَمِدَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ كَمَا نَحْنُ أَيْضًا؟ وَأَمَرَ أَنْ يَعْتَمِدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ. حِينَئِذٍ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ أَيَّامًا" (أع10:47- 48). باسم يسوع المسيح لكي تعاد ولادة النفس".

13. سر **المعمودية** يدعوه القديس يوستينوس الشهيد ماء الحياة.

14. **كما يدعو الآباء يوم المعمودية، أنه يوم الأنوار، ويوم العطية، ويوم الخلاص، معمودية الخلاص.** هكذا يعلم القديس غريغوريوس النزينزي، أن يوم المعمودية هو "يوم الأنوار" فيقول: "أن الذى اعتمد قد أضحى مستنيراً، أما الموعوظ فهو على طريق الاستنارة". وفي عظته الأربعين على المعمودية، يدعوها "العطية" فيقول فى ذلك: "نحن نسميها العطية لأنها تُعطى لنا دون أن ندفع فيها ثمناً". كما أنه في نفس العظة يدعوها "الخلاص" وهي نفس التسمية التى أطلقها القديس باسيليوس الكبير على المعمودية من قبله داعياً إياها: "**معمودية الخلاص**".

الفصل الثالث

رموز المعمودية في العهد القديم

توجد عدة رموز وإشارات عن سر المعمودية فى العهد القديم، يمكن أن نوضحها على النحو التالى:

1. الروح الذي كان يرف على وجه المياه (تك1: 2): فى المعمودية المسيحية يحل الروح القدس على المياه ليخلق المؤمن من جديد خليقة أخرى، خليقة ثانية. وكما أن الخليقة الأولى كانت من الماء والروح، حيث يذكر فى سفر التكوين أن "رُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ" (تك1:2). كان هذا فى بدء الخليقة كان إشارة إلى بث روح الحياة فى المادة. هكذا تصنع الخليقة الثانية من الماء والروح، الماء فى المعمودية، والروح هو، الروح القدس الذى ينحدر من السماء على مياه المعمودية ليخلق الإنسان من جديد.

فى ذلك يقول القديس أمبروسيوس (339–397م): "تأملوا فى قدم الإشارة إلى هذا السر حتى فى بدء العالم نفسه. ففى البدء عندما صنع الله السموات والأرض "وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ" (تك1: 2). فذاك الذى كان يرف على المياه، ألم يكن يعمل فى المياه؟! بل لماذا أقول (يعمل) فقد كان يرف باعتباره حاضراً. تذكروا أنه كان يعمل فى صنع العالم إذ قال النبى: "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز33: 6). وكل من هذين النصيين يعتمد على شهادة نبى، فموسى يقول إنه يرف، وداود يشهد إنه كان يعمل".

2. فلك نوح والطوفان: يذكر سفر التكوين عن نجاه نوح وأولاده بواسطة الفلك، فيقول: "وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ" (تك6: 18). لذلك كان الفلك رمزاً للمعمودية. وهذا ما أشار إليه قول بطرس الرسول: "إِذْ عَصَتْ قَدِيمًا، حِينَ كَانَتْ أَنَاةُ اللهِ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إِذْ كَانَ الْفُلْكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ. الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ. لاَ إِزَالَةُ وَسَخِ الْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ اللهِ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ

الْمَسِيحِ" (1بط3: 20–21). فبسبب فلك نوح كان النجاة، لذلك كان الفلك رمزاً لجسد يسوع المسيح، الذى قدمه ذبيحة على الصليب، فخلصنا نحن من طوفان بحر العالم، ومن الهلاك الأبدى. كما أن الحمامة التى دخلت الفلك من الطاقة، هى تُمثل الروح القدس الذى استقر بهيئة جسمية مثل حمامة على رأس السيد المسيح فى مياه نهر الأردن. كذلك غصن الزيتون يرمز إلى زيت المسحة، حيث أن زيت الزيتون هو الذى يستخدم فى المسحة المقدسة، فى سر الميرون. حيث يُرشم المُعمَّد وبه ينال سر مسحة الروح القدس أى أنه يكون ممسوحاً بالروح القدس، ولذلك يدعى مسيحياً. فى ذلك يقول العلامة ترتليان: "كان الطوفان الذى طهر العالم من شره القديم، يحمل نبوة خفية عن تطهير الخطايا بواسطة الجرن المقدس. كان الفلك الذى خَلصَ من كان بداخله، أيقونة للكنيسة المملوءة رهبة، وللرجاء الصالح الذى صار لنا بسببها. أما الحمامة التى أحضرت غصن زيتون إلى الفلك، فأظهرت بهذا أن الأرض قد انكشفت، رسمت مجىء الروح القدس فى المصالحة الذى كان من المزمع أن تتحقق من الأعالى، لأن الزيتون علامة السلام".

كما يقول القديس يوحنا ذهبى الفم: "إن قصة الطوفان سر محتوياتها، كانت مثالاً للأمور العتيدة أن تتم، الفلك هو الكنيسة، ونوح هو رمز المسيح، والحمامة هى رمز الروح القدس، وغصن الزيتون يشير إلى الصلاح الإلهى. كما كان الفلك فى وسط البحر حصناً لمن فى داخله، هكذا تُخلَّص الكنيسة الهالكين. الفلك يعطى حصانة، أما الكنيسة فتفعل ما هو أعظم، كمثال احتوى الفلك الحيوانات غير العاقلة وحفظها. أما الكنيسة فأدخلت البشر الذين يسلكون بغير تعقل ولم تحصنهم فحسب وإنما أيضاً غيرت طبيعتهم".

القديس جيروم فى شرح موضوع الفلك كرمز للمعمودية يقول: "طارت حمامة الروح القدس نحو نوح، بعد أن خرج الطائر الأسود (الغراب) وصارت كما لو كانت متجهة نحو المسيح فى الأردن".

فى ذلك أيضاً القديس يقول كيرلس الأورشليمى: "البعض أنه كما جاء الخلاص فى أيام نوح بالخشبة والماء، وكان بدء لخليقة جديدة، وكما عادت الحمامة إلى نوح فى المساء بغصن زيتون، هكذا نزل الروح القدس على نوح الحقيقى مُوجد الخليقة الجديدة. لقد نزلت عليه الحمامة الروحية أثناء عماده لكى يظهر أنه هو الذى يمنح الخلاص للمؤمنين بخشبة الصليب، والذى وهب العالم نعمة الخلاص بموته نحو المساء".

كما يذكر القديس أمبروسيوس (339–397م): الخلاص كان بخشبة الصليب وفعل الروح القدس، والذى كان يرمز إليه فلك نوح والحمامة فيقول: خذوا شهادة أخرى، كل بشر فسد بآثامه، "فَقَالَ الرَّبُّ: لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً" (تك6: 3)، حيث يوضح الله أن نعمة الروح تتباعد بسبب الدنس الجسدي، ونجاسة الخطَّية الشنيعة، التى بسببها أرسل الله الطوفان رغبة منه استكمال ما كان ناقصاً، وأمر نوحاً البار أن يدخل الفلك. وإذ انتهى الطوفان أرسل نوح أولاً غراباً فلم يعد، ثم أرسل حمامة عادت بغصن زيتون. إنكم ترون الماء وترون الخشب (خشب الفلك)، وترون الحمامة، فهل تقفون حيارى أمام السر؟!".

كما يقول أيضاً: "إن الماء الذي يُغمر فيه الجسد حتى تُغسل فيه كل خطية جسدية، ويُدفن فيه كل شر، والخشب هو الذي عُلق عليه الرب يسوع عندما تألم لأجلنا. والحمامة هي التي على هيئتها نزل الروح القدس كما قرأتم في العهد الجديد – ذاك الذى يهبكم سلام النفس وهدوء الفكر. والغراب هو رمز الخطية التي تذهب ولا ترجع إذا حُفظ فيكم البر في الداخل وفي الخارج".

3. عبور بنى إسرائيل البحر الاحمر: دخل بنو إسرائيل فى وسط البحر ومشوا على اليابسة، وكان الماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وبعد أن عبر بنو إسرائيل البحر وغرق فرعون مع مركباته، يذكر فى ذلك سفر الخروج: "فَسَعَى الْمِصْرِيُّونَ وَرَاءَهُمْ وَأَدْرَكُوهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ وَفُرْسَانِهِ وَجَيْشِهِ، وَهُمْ نَازِلُونَ عَنْدَ الْبَحْرِ عَِنْدَ فَمِ الْحِيرُوثِ، أَمَامَ بَعْلَ صَفُونَ.

فَلَمَّا اقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ رَفَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عُيُونَهُمْ، وَإِذَا الْمِصْرِيُّونَ رَاحِلُونَ وَرَاءَهُمْ. فَفَزِعُوا جِدًّا، وَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ. وَقَالُوا لِمُوسَى: «هَلْ لأَنَّهُ لَيْسَتْ قُبُورٌ فِي مِصْرَ أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ؟ مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا حَتَّى أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ؟ أَلَيْسَ هذَا هُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي كَلَّمْنَاكَ بِهِ فِي مِصْرَ قَائِلِينَ: كُفَّ عَنَّا فَنَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ؟ لأَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ نَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ». فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «لاَ تَخَافُوا. قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ الَّذِي يَصْنَعُهُ لَكُمُ الْيَوْمَ. فَإِنَّهُ كَمَا رَأَيْتُمُ الْمِصْرِيِّينَ الْيَوْمَ، لاَ تَعُودُونَ تَرَوْنَهُمْ أَيْضًا إِلَى الأَبَدِ. الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ»[7].

كما أن القديس بولس الرسول، يعقد مقارنة بين هذا العبور، وسر المعمودية فيشير إلى أن البحر كان رمزاً لماء المعمودية، ويبين أن السحابة كانت إشارة إلى الروح القدس، وفرعون كان رمزاً للشيطان الذى ينسحق فى ماء المعمودية، وعصا موسى رمزاً للصليب. فيقول في ذلك: "فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا أَنَّ آبَاءَنَا جَمِيعَهُمْ كَانُوا تَحْتَ السَّحَابَةِ، وَجَمِيعَهُمُ اجْتَازُوا فِي الْبَحْرِ، وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ" (1كو10: 1-2). لقد قبل بنو إسرائيل الموت بدخولهم إلى الماء لكى يحيوا عند خروجهم منه. لذلك احتلت حادثة عبور البحر الأحمر كرمز لمعمودية العهد الجديد جانباً كبيراً من كتابات آباء الكنيسة. فأول من تحدث من آباء الكنيسة . بعد القديس بولس الرسول . عن عبور البحر الأحمر كرمز للمعمودية هو القديس

---

[7] فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا. وَارْفَعْ أَنْتَ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ وَشُقَّهُ، فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ. وَهَا أَنَا أُشَدِّدُ قُلُوبَ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى يَدْخُلُوا وَرَاءَهُمْ، فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَكُلِّ جَيْشِهِ، بِمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ. فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَ أَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ». فَانْتَقَلَ مَلاَكُ اللهِ السَّائِرُ أَمَامَ عَسْكَرِ إِسْرَائِيلَ وَسَارَ وَرَاءَهُمْ، وَانْتَقَلَ عَمُودُ السَّحَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَوَقَفَ وَرَاءَهُمْ. فَدَخَلَ بَيْنَ عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ وَعَسْكَرِ إِسْرَائِيلَ، وَصَارَ السَّحَابُ وَالظَّلاَمُ وَأَضَاءَ اللَّيْلَ. فَلَمْ يَقْتَرِبْ هذَا إِلَى ذَاكَ كُلَّ اللَّيْلِ. وَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ، فَأَجْرَى الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً وَانْشَقَّ الْمَاءُ. فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسَطِ الْبَحْرِ. وَكَانَ فِي هَزِيعِ الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ فِي عَمُودِ النَّارِ وَالسَّحَابِ، وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّينَ، وَخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فَقَالَ الْمِصْرِيُّونَ: «نَهْرُبُ مِنْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ».فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ». فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إِلَى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ. فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ. وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشَوْا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ" (خر14: 9. 29).

كليمنضس الإسكندرى (150–250)، ويليه العلامة أوريجانوس (185–254م) الذى يكشف عن الأساس اللاهوتى لهذا الرمز باستشهاده بالقديس بولس الرسول فيقول: "انظروا كيف يختلف شرح بولس الرسول لعبور البحر الأحمر عن القراءة التاريخية، فالذى يعتبره اليهود عبوراً للبحر يدعوه بولس معمودية، والذين يعتقدون أنها سحابة، يبرهن القديس بولس على أنه الروح القدس. وهو يود أن تُفسِّر هذه الحادثة بنفس المعنى الذى قصده الرب بقوله: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو3: 5). كما يُكمِّل العلامة أوريجانوس كلامه قائلاً: "ما التعليم الذى أُعطى لنا إذاً؟. لقد قلنا سابقاً رأى الرسول فى هذا الصدد، فهو يدعو هذا الأمر معمودية لموسى، تمت في السحابة وفى البحر. وهذا يعنيكم أنتم الذين اعتمدتم فى المسيح، بالماء والروح القدس، لكى تعرفوا أن المصريين فى أعقابكم، ويريدون أن يرغموكم على خدمتهم. والمقصود طبعاً رؤساء هذا العالم والأرواح الشريرة، هؤلاء الذين كنتم تحت عبوديتهم حتى الآن، فإنهم يسعون فى تعقبكم، ولكنكم تنزلون إلى الماء فتشفون وتخلصون مرة واحدة من أدناس الخطَّية وتصعدون منه: "إِنْسَانًا وَاحِدًا جَدِيدًا" (أف2: 15) مستعدين أن تغنوا للرب أغنية جديدة "غَنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ. أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُونَ فِي الْبَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالْجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا" (إش42: 10)، أما المصريون الذين يتعقبونكم فسوف تبتلعهم الهاوية ...".

كما يقول العلامة أوريجانوس أيضاً: "يريد فرعون وجنوده أن يصلوا إليك، لكنك إذ تنزل فى المياه تخرج منها إنساناً صحيحاً سليماً، حيث تغتسل فيها من نجاسات الخطيئة لتصعد إنساناً جديداً مستعداً للتسبيح بالنشيد الجديد. "غَنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ. أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُونَ فِي الْبَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالْجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا" (إش42: 10).

كما أن العلامة ترتليان يقول: "عندما ترك الشعب مصر بإرادته وهربوا من سلطان ملك مصر بعبورهم الماء، أهلكت المياه الملك وكل جيشه. أي شيء أكثر وضوحاً من هذا كرمز للمعمودية؟ فالشعوب تخلص من العالم بواسطة الماء، إذ يتركون الشيطان الذي كان يطغى عليهم، فيهلك في الماء". **كما يشرح أيضا القديس أمبروسيوس** أن عبور بني اسرائيل كان عبوراً من الموت إلى الحياة. ففي ذلك يقول: "إن مصر فى الحقيقة ترمز هنا إلى العالم الذى

نمارس فيه شقاءنا بالحياة الشريرة التى نعيشها، والشعب هم الذين يستنيرون (يعُمدون)، والماء هو واسطة الخلاص للشعب وهو يمثل المعمودية. فرعون وجنوده رمز للشيطان وأعوانه".

أما القديس باسيليوس الكبير (330–379) فيوجز فى بلاغة رائعة معنى عبور البحر الأحمر كرمز لسر المعمودية المقدسة فيقول: "لو لم يعبر إسرائيل البحر، ما كان فى استطاعته أن يهرب من فرعون. كذلك أنتم أن لم تغطسوا فى الماء فلم تهربوا من استبداد إبليس القاصى، فى البحر غرق العدو. وفى المعمودية تموت عدواتنا لله. وكما خرج الشعب بسلام من البحر هكذا نخرج أحياء من الموت، ونصعد من الماء أحياء من بين الأموات، وقد خلّصتنا نعمة الذى دعانا "وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ - بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ" (أف2: 5). والسحابة هى ظل لنعمة الروح القدس الذى يطفئ لهيب الشهوات بواسطة إماتة الأعضاء "لَيْسَ أَنَّنَا كُفَاةٌ مِنْ أَنْفُسِنَا أَنْ نَفْتَكِرَ شَيْئًا كَأَنَّهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، بَلْ كِفَايَتُنَا مِنَ اللهِ" (2كو3: 5).

كما أن القديس غريغوريوس أسقف نصيص، يشير أيضاً إلى خروج بنى اسرائيل من أرض مصر، على أنه كان رمزاً لخلاص العهد الجديد بالمعمودية فى الحقيقة إذ يقترب الشعب الآن إلى مياه التجديد، يكونون كمن يهربون من مصر التى تشير إلى الخطية (فى ذاك الوقت) فيتحررون ويخلصون، أما إبليس وأعوانه مع أرواح الشر فيهلكون ... هكذا نلقى الشهوات فى المياه، لكى نقتفى أثر العبرانيين، لكن المياه التى تمثل عنصر الحياه بالنسبة للذين يلتجئون إليها، تكون عنصر موت للذين يقتنفون أثرهم.

القديس أمبروسيوس (339–397م) يستكمل كلامه السابق ذكره عن عبور بنى إسرائيل البحر الأحمر، كرمز ثالث لمعمودية الماء والروح فيقول: "هناك أيضاً شهادة ثالثة، إذ يعلّمنا الرسول قائلاً: "فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا أَنَّ آبَاءَنَا جَمِيعَهُمْ كَانُوا تَحْتَ السَّحَابَةِ، وَجَمِيعَهُمُ اجْتَازُوا فِي الْبَحْرِ، وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ" (1كو10:1–2). بل يقول موسى نفسه فى تسبيحته: "نَفَخْتَ بِرِيحِكَ فَغَطَّاهُمُ الْبَحْرُ. غَاصُوا كَالرَّصَاصِ فِي مِيَاهٍ غَامِرَةٍ" (خر15: 10). إنكم تلاحظون أن المعمودية المقدسة سبق الرمز إليها حينئذ فى ذلك

الخروج الذى للعبرانيين، إذ عندما قتل المصرى هرب العبرانى، لأنه ما الذى نتعلمه يومياً أيضاً من هذا السر إلاَّ أن إثم قد ابتُلع، والخطَّية أُبطلت، أما الفضيلة والطهارة فيبقيان بلا ضرر".

أيضاً: "أى شيء أعظم من عبور البحر بواسطة الشعب اليهودى؟! ومع هذا فإن اليهود اجتازوه، مات جميعهم فى البرية! أما الذى يعبر هذا الينبوع (المعمودية) أى يجتاز من الأرضيات إلى السماويات فيُحسب ذلك بحق تحول أو عبور، من الخطية إلى الحياة فلا يموت بل يقوم. عمود السحاب كظل للروح القدس. فقد كان الشعب فى البحر، وكان عمود النور يتقدم، عندئذ تبعهم عمود السحاب كظل للروح القدس. ها أنت ترى كيف ظهر بوضوح الروح القدس والماء كمثال للمعمودية.

عند القديس ديديموس الضرير (331-398م) فإنه بعد أن تكلم عن تقديس الماء بالروح القدس، وعن الطوفان كرمز للمعمودية يذكر أن عبور البحر الأحمر كان رمزاً آخر لها، فيقول: "البحر الأحمر الذى أفسح للإسرائليين عبوره دون خوف، وأنقذهم من الشرور التى تواعدهم بها المصريون، وكل تاريخ خروج اليهود من أرض مصر، هذه جميعها رمز للخلاص الذى يتم فى المعمودية. فمصر فى الحقيقة هى رمز للعالم الذى نضع فيه تعاستنا بأنفسنا بالحياة الشريرة، والشعب (الذى خرج من مصر) هم الذين استناروا (المعمودية)، والمياه التى بواسطتها تم الخلاص للناس (بين إسرائيل) تمثل المعمودية، وفرعون وجنوده يمثلون الشيطان وأتباعه.

4. شريعة الختان: شريعة الختان أمر بها الرب أبانا ابراهيم فى قوله: "هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" (تك17:10-12). هذه كانت علامة إنتماء الشخص وانضمامه إلى شعب الله. وفى ذلك يقول الرسول عن عمل المسيح الكفارى فى المعمودية: "وَبِهِ ايْضاً خُتِنْتُمْ خِتَاناً غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا الْبَشَرِيَّةِ، بِخِتَانِ الْمَسِيحِ مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا اقِمْتُمْ ايْضاً مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ، الَّذِي اقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (كو2: 11-12). وقد حلت المعمودية فى العهد الجديد محل الختان، فالمعروف أنه فى الختان كان يقطع

جزء من الجسد ويموت إشارة إلى الموت الكامل. كما أن الختان أيضاً علامة لا تمحى، هكذا أيضاً المعمودية. وفى الختان يسيل الدم كذلك يعتبر بختانه عضواً فى شعب الله، وجماعة المؤمنين، كقول الرب: "وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ عَهْداً أَبَدِيّاً لأَكُونَ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ" (تك17: 7)، هكذا أيضاً المُعمَّد يصير عضواً فى الكنيسة فى شعب الله، وفى جماعة المؤمنين. أما غير المختون فكان يهلك، يقول الرب: "وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي" (تك17: 14)، هكذا أيضاً: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3: 4). وعدم الدخول لملكوت الله، لأنه لم يمت مع المسيح فى المعمودية ولم يقم معه، آخذاً الحياة الجديدة.

فكما أن الختان كان لازماً وضرورياً كالأمر الإلهى، هكذا أيضاً المعمودية لازمة للمغفرة ولعضوية جسد المسيح. وكما أن الإنسان كان يختتن رمزاً للموت مرة واحدة، ويقوم بمنحة الحياة مرة أخرى، هكذا أيضاً المعمودية واحدة لا تتكرر، لأن المُعمَّد يموت مع المسيح مرة واحدة ويقوم أيضاً بقيامته. كقول الرب: "وَإِذْ كُنْتُمْ امْوَاتاً فِي الْخَطَايَا وَغَلَفِ جَسَدِكُمْ، احْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحاً لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا" (كو2: 13).

5. عين ماء مارة الشديدة المرارة (خر15): يشرح القديس أمبروسيوس (339–397م) هذا الأمر فيشير إلى عن أهمية التطهير فى الأردن (المعمودية) بالنعمة، كما حدث فى قصة نعمان السريانى فيقول: "كانت مارة عين ماء شديدة المرارة، فلما طرح موسى الشجرة أصبحت مياها عذبة. لأن الماء بدون الكرازة بصليب ربنا، لا فائدة منه للخلاص العتيد. ولكن بعد أن تكرس بسّر صليب الخلاص أصبح مناسباً لاستعماله فى الجرن الروحى، وكأس الخلاص. فكما ألقى موسى النبى الخشبة فى تلك العين، هكذا أيضاً الكاهن ينطق فى جرن المعمودية بشهادة صليب ربنا، فيصبح الماء عذباً بسبب عمل النعمة".

6. نبوءة حزقيال النبى (حز16: 8–9): يقول الرب لأورشليم الخاطئة التى ترمز إلى النفس البشرية فى سقوطها: "وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ

وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ" (حز16: 8–9). هذا الماء والغسيل كان رمزاً للمعمودية، أما الزيت فكان رمزاً لمسحة الروح القدس. وعبارة: "**صرت لـيّ**" تعنى انضمامها إلى عضوية الكنيسة (جسد المسيح). فهذه النبوءة تشير إلى أن أهمية دور المعمودية فى الخلاص ومغفرة الخطايا، ليس حسب تعليم العهد الجديد فقط، إنما حسب رموزها فى العهد القديم أيضاً، كما ذكرنا سابقاً، الختان، والفلك، عبور البحر الأحمر. والمغفرة التى ننالها فى المعمودية يعبر عنها قانون الإيمان تعبيراً واضحاً جداً فى قوله: "نؤمن بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا".

7. كذلك هناك إشارة للغسل فى المعمودية من خلال طقس سيامة الكهنوت فى العهد القديم. فلم يعط الكهنوت لهارون، إلا بعدما غسل جسده أولاً بالماء، يقول الكتاب المقدس: "وَتُقَدِّمُ هَارُونَ وَبَنِيهِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ وَتَغْسِلُهُمْ بِمَاءٍ" (خر29: 4).

8. الاغتسال في المرحضة (خر30: 17–21): كذلك أيضاً نجد إشارة للاغتسال بالمعمودية من خلال أمر الرب للكهنة عند دخولهم خيمة الاجتماع، أن يغتسلوا أولاً فى المرحضة. يقول الكتاب المقدس: "وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: وَتَصْنَعُ مِرْحَضَةً مِنْ نُحَاسٍ وَقَاعِدَتَهَا مِنْ نُحَاسٍ لِلاِغْتِسَالِ. وَتَجْعَلُهَا بَيْنَ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ وَالْمَذْبَحِ وَتَجْعَلُ فِيهَا مَاءً. فَيَغْسِلُ هَارُونُ وَبَنُوهُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْهَا. عِنْدَ دُخُولِهِمْ إِلَى خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ يَغْسِلُونَ بِمَاءٍ لِئَلاَّ يَمُوتُوا. أَوْ عِنْدَ اقْتِرَابِهِمْ إِلَى الْمَذْبَحِ لِلْخِدْمَةِ لِيُوقِدُوا وَقُوداً لِلرَّبِّ. يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ لِئَلاَّ يَمُوتُوا. وَيَكُونُ لَهُمْ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً لَهُ وَلِنَسْلِهِ فِي أَجْيَالِهِمْ". وفى ذلك يتحدث القديس أمبروسيوس (339–397م) عن أهمية التطهير فى الأردن الجديد (المعمودية) بالنعمة، كما حدث فى قصة نعمان السريانى فيقول: هذا الاغتسال الذى لتطهير الجسد كان رمزاً للمعمودية للتطهير من الخطايا، وهو يتم بعد الإيمان كما يقول بولس الرسول: يذكر الكتاب المقدس عن شفاء ونعمان السريانى فيقول: "لِنَتَقَدَّمْ بِقَلْبٍ صَادِقٍ فِي يَقِينِ الإِيمَانِ، مَرْشُوشَةً قُلُوبُنَا مِنْ ضَمِيرٍ شِرِّيرٍ، وَمُغْتَسِلَةً أَجْسَادُنَا بِمَاءٍ نَقِيٍّ" (عب10: 22).

9. شفاء نعمان السريانى: يذكر الكتاب المقدس عن نعمان السريانى أنه:"لَمَّا سَمِعَ أَليشع رَجُلُ اللَّهِ أَنَّ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ قَدْ مَزَّقَ ثِيَابَهُ، أَرْسَلَ إِلَى الْمَلِكِ يَقُولُ: لِمَاذَا مَزَّقْتَ ثِيَابَكَ؟ لِيَأْتِ إِلَيَّ فَيَعْلَمَ أَنَّهُ يُوجَدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ. فَجَاءَ نُعْمَانُ بِخَيْلِهِ وَمَرْكَبَاتِهِ وَوَقَفَ عِنْدَ بَابِ بَيْتِ أَليشع. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ

أليشع رَسُولاً يَقُولُ: اذْهَبْ وَاغْتَسِلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الأُرْدُنِّ فَيَرْجِعَ لَحْمُكَ إِلَيْكَ وَتَطْهُرَ .فَغَضِبَ نُعْمَانُ وَمَضَى وَقَالَ: هُوَذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَيَّ وَيَقِفُ وَيَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِهِ وَيُرَدِّدُ يَدَهُ فَوْقَ الْمَوْضِعِ فَيَشْفِي الأَبْرَصَ!. أَلَيْسَ أَبَانَةُ وَفَرْفَرُ نَهْرَا دِمَشْقَ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيعِ مِيَاهِ إِسْرَائِيلَ؟ أَمَا كُنْتُ أَغْتَسِلُ بِهِمَا فَأَطْهُرَ؟ وَرَجَعَ وَمَضَى بِغَيْظٍ. فَتَقَدَّمَ عَبِيدُهُ وَقَالُوا: يَا أَبَانَا، لَوْ قَالَ لَكَ النَّبِيُّ أَمْراً عَظِيماً أَمَا كُنْتَ تَعْمَلُهُ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ إِذْ قَالَ لَكَ: اغْتَسِلْ وَاطْهُرْ؟. فَنَزَلَ وَغَطَسَ فِي الأُرْدُنِّ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَسَبَ قَوْلِ رَجُلِ اللَّهِ، فَرَجَعَ لَحْمُهُ كَلَحْمِ صَبِيٍّ صَغِيرٍ وَطَهُرَ" (2مل5: 8-14).

فى هذا يقول القديس أثناسيوس الرسولى: "ورسم آخر على يد أليشع النبى لمعمودية المسيح بنهر الأردن. واستنقاء كل من آمن به وتعمد بمعمودية من برص الخطايا. مجيء نعمان السريانى وشفاؤه باستحمامه فى مياه الأردن قياساً لنقاء أنفس المؤمنين المعمدين بالمسيح من خطاياهم. وكان الموضع الذى استحم فيه نعمان من نهر الأردن هو الموضع الذى وقف فيه تابوت الرب على عهد يشوع بن نون. وحيث تعمد المسيح ابن الله فحقق الرسم بالحق".

كما أن العلامة أوريجانوس يقول: "انظر، إن الذين يغتسلون بواسطة أليشع الروحى، الذى هو ربنا ومخلصنا، يتطهرون فى سر المعمودية ... لقد قام نعمان وذهب واغتسل رمزاً للمعمودية، فصار جسمه كجسم صبى صغير. من هو هذا الصبى؟ إنه ذاك الذى يولد فى جرن التجديد".

كما يقول أيضاً العلامة أوريجانوس: "لم يتطهر أحد إلا نعمان السريانى الذى ليس من إسرائيل. انظر، إن الذين يغتسلون بواسطة أليشع الروحى الذى هو ربنا ومخلصنا يتطهرون فى سر المعمودية، ويغتسلون من وصمة الحرف (الذى للناموس)".

يتحدث القديس ديديموس الضرير عن غنى مياه المعمودية من خلال حادثة نعمان السريانى فيقول: "أعلن أليشع النبي مقدماً عن غنى مياه المعمودية غير الموصوف، وفي نفس الوقت إشارة إلى أنه سيمتد إلى كل الذين يرغبون في قبول الإيمان. فقد أرسل أليشع النبي نعمان

السرياني الأبرص الذي كان غريباً، والذى أتي طالباً الشفاء إلى الأردن وأمره أن يغطس فيه سبع مرات فى الأردن. لقد أوضح له أنه يلزمه أن يغطس سبع مرات، لكى يتعلم هذا الغريب أن الله استراح فى اليوم السابع، أو لأنه كان يشير إلى الروح الإلهى بطريقة رمزية".

القديس غريغوريوس النيسى، يقول: "فى الحقيقة الأردن وحده بين كل الأنهار تقبل باكورة التقديس والبركة، وأفاض كينبوع نعمة المعمودية على العالم كله".

القديس أمبروسيوس (339-397م): "أخيراً فلتتعلموا درساً من الملوك، فنعمان كان سريانى الجنس، وقاسى من مرض البرص، ولم يستطع أن يتطّهر بأية وسيلة. ولكن فتاة من الأسرى قالت له يوجد نبى فى إسرائيل يستطيع أن يُطَهِّر من البرص" (2مل5). فأخذ معه ذهباً وفضة وجاء إلى ملك إسرائيل. ولما سمع ذلك الملك بسبب مجئ نعمان مزق ثيابه قائلاً: إن هذه فرصة يدبرها ملك آرام ضده حيث أن ما طُلب منه ليس فى متناول يد الملوك. ولكن أليشع أرسل كلمة إلى الملك لكى يرسل نعمان السريانى إليه، حتى يعرف أن هناك فى وطنه مياهاً أفضل، وكثيراً ما استحم فيها ولم يطهر من برصه، ولذلك لم يطع وصية النبى، ولكن بنصيحة وإلحاح خدامه رضخ وغطس، وإذ طهر حالاً، فهم أن الإنسان يطهر ليس بالمياه بل بالنعمة .. فافهموا الآن ما هى تلك الفتاة الصغيرة بين الأسرى، إنها الجماعة التى جُمعت من الأمم، إنها كنيسة الله التى كانت مستعبدة قديماً فى أسر الخطيَّة، عندما لم تكن لها حرية النعمة، التى بواسطة تدبيرها سمع الناس الأغنياء من الأمم كلمة النبوة التى كانوا يشكون فيها قبلاً، ولكن بعدما آمنوا أنها ينبغى أن تطاع، اغتسلوا من كل دنس الخطَّية. إن نعمان شك قبل أن يبرأ، أما أنتم فقد برئتم فلا ينبغى أن تشكُّوا ...".

10. قبول ذبيحة إيليا علي جبل الكرمل: يقول الكتاب المقدس عن هذا الموضوع: "قَالَ إِيلِيَّا لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: تَقَدَّمُوا إِلَى. فَتَقَدَّمَ جَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَيهِ. فَرَمَّمَ مَذْبَحَ الرَّبِّ الْمُنْهَدِمَ. ثُمَّ أَخَذَ إِيلِيَّا اثْنَيْ عَشَرَ حَجَراً، بِعَدَدِ أَسْبَاطِ بَنِي يَعْقُوبَ. وَبَنَى الْحِجَارَةَ مَذْبَحاً بِاسْمِ الرَّبِّ، وَعَمِلَ قَنَاةً حَوْلَ الْمَذْبَحِ تَسَعُ كَيْلَتَيْنِ مِنَ الْبِزْرِ.ثُمَّ رَتَّبَ الْحَطَبَ وَقَطَّعَ الثَّوْرَ وَوَضَعَهُ عَلَى الْحَطَبِ وَقَالَ: امْلَأُوا أَرْبَعَ

جَرَّاتِ مَاءً وَصبُّوا عَلَى الْمُحْرَقَةِ وَعَلَى الْحَطَبِ. ثُمَّ قَالَ: ثَنُّوا فَثَنَّوْا. وَقَالَ: ثَلِّثُوا فَثَلَّثُوا.فَجَرَى الْمَاءُ حَوْلَ الْمَذْبَحِ وَامْتَلأَتِ الْقَنَاةُ أَيْضاً مَاءً. وَكَانَ عِنْدَ إِصْعَادِ التَّقْدِمَةِ أَنَّ إِيلِيَّا النَّبِيَّ تَقَدَّمَ وَقَالَ: أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ، لِيُعْلَمِ الْيَوْمَ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ فِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنِّي أَنَا عَبْدُكَ، وَبِأَمْرِكَ قَدْ فَعَلْتُ كُلَّ هَذِهِ الأُمُورِ. اسْتَجِبْنِي يَا رَبُّ اسْتَجِبْنِي، لِيَعْلَمَ هَذَا الشَّعْبُ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ الإِلَهُ، وَأَنَّكَ أَنْتَ حَوَّلْتَ قُلُوبَهُمْ رُجُوعاً. فَسَقَطَتْ نَارُ الرَّبِّ وَأَكَلَتِ الْمُحْرَقَةَ وَالْحَطَبَ وَالْحِجَارَةَ وَالتُّرَابَ، وَلَحَسَتِ الْمِيَاهَ الَّتِي فِي الْقَنَاةِ. فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ ذَلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَقَالُوا: الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ! الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ!.

كما يقول الكتاب المقدس أيضاً: "فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: أَمْسِكُوا أَنْبِيَاءَ الْبَعْلِ وَلاَ يُفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ. فَأَمْسَكُوهُمْ، فَنَزَلَ بِهِمْ إِيلِيَّا إِلَى نَهْرِ قِيشُونَ وَذَبَحَهُمْ هُنَاكَ.وَقَالَ إِيلِيَّا لأَخْآبَ: اصْعَدْ كُلْ وَاشْرَبْ، لأَنَّهُ حِسُّ دَوِيِّ مَطَرٍ.فَصَعِدَ أَخْآبُ لِيَأْكُلَ وَيَشْرَبَ، وَأَمَّا إِيلِيَّا فَصَعِدَ إِلَى رَأْسِ الْكَرْمَلِ وَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ، وَجَعَلَ وَجْهَهُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ.وَقَالَ لِغُلاَمِهِ: اصْعَدْ تَطَلَّعْ نَحْوَ الْبَحْرِ. فَصَعِدَ وَتَطَلَّعَ وَقَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ. فَقَالَ: ارْجِعْ سَبْعَ مَرَّاتٍ. وَفِي الْمَرَّةِ السَّابِعَةِ قَالَ: هُوَذَا غَيْمَةٌ صَغِيرَةٌ قَدْرُ كَفِّ إِنْسَانٍ صَاعِدَةٌ مِنَ الْبَحْرِ. فَقَالَ: اصْعَدْ قُلْ لأَخْآبَ: اشْدُدْ وَانْزِلْ لِئَلاَّ يَمْنَعَكَ الْمَطَرُ. وَكَانَ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَا أَنَّ السَّمَاءَ اسْوَدَّتْ مِنَ الْغَيْمِ وَالرِّيحِ، وَكَانَ مَطَرٌ عَظِيمٌ. فَرَكِبَ أَخْآبُ وَمَضَى إِلَى يَزْرَعِيلَ. وَكَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَى إِيلِيَّا، فَشَدَّ حَقْوَيْهِ وَرَكَضَ أَمَامَ أَخْآبَ حَتَّى تَجِيءَ إِلَى يَزْرَعِيلَ" (1مل18:30–46). من خلال النص السابق نلاحظ أن الذبيحة لم تنزل عليها النار من السماء، إلا بعد أن سكب عليها الماء ثلاث دفعات. وفى **ذلك يقول القديس أثناسيوس الرسولى:** "قرب إيليا عجلاً على جبل الكرمل، وقطعه إرباً وبنى مذبحاً ووضع عليه حطباً والقربان على الحطب، ثم أمر أعوانه وصحبه، فحفروا خندقاً مثالاً للمعمودية. وأن يصبوا على ذلك كله ماء فصبوا وقالوا لهم ثنوا فثنوا، وثلثوا فثلثوا قياساً لتثليث غطسات المعمودية، وامتلأ الخندق ماءً. ثم صلى إلى الرب أن يستجيبه بنار، فنزلت نار من السماء وأكلت القربان والحطب والماء ولحست الأرض، تحقيقاً لقبول الرب القربان والماء، ومثالاً لنزول الروح القدس على ماء المعمودية،

وعلى قربان المذبح ... ومن بعد ذلك تمكن إيليا من أعدائه الكفار كهنة إبليس وقتلهم مثالاً لتمكن المؤمن بالمسيح من بعد المعمودية والقربان من أعدائه (إبليس والشياطين) بعون الرب".

كما يقول القديس غريغوريوس النيسى (330–395م): "الذبيحة العجيبة التى قّدمها التسبيتى "فَلْيُعْطُونَا ثَوْرَيْنِ، فَيَخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ ثَوْرًا وَاحِدًا وَيُقَطِّعُوهُ وَيَضَعُوهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَلكِنْ لاَ يَضَعُوا نَارًا. وَأَنَا أُقَرِّبُ الثَّوْرَ الآخَرَ وَأَجْعَلُهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَلكِنْ لاَ أَضَعُ نَارًا" (1مل18: 23) تفوق فهم البشر، لأنها عن أى شيء تنبئ سوى ذلك الطقس المرتبط بالإيمان بالآب والابن والروح القدس، وعن الخلاص الآتى ... فالنبى وقد امتلأ بنعمة الروح جاء لمقابلة آخاب، وتحدى كهنة البعل بطريقة عجيبة أمام الملك وكل الشعب، فاقترح عليهم تقديم عجل ذبيحة، وعلى أن تنزل نار وتأكلها، وشهّر بهم، وأظفر غباوتهم، لأنهم عبثاً صلوا وصرخوا إلى الآلهة التى ليست موجودة، وأخيراً دعا إيليا الإله الحقيقى، وأتم ما اقترحه على الأنبياء، بل زاد عليه لأنه لم يصل لكى تنزل النار على الخشب الجاف، بل طلب من الحاضرين أن يحضروا ماءً كثيراً، وعندما سكب الماء ثلاث مرات على الحطب الجاف أشعل بصلاته النار من وسط المياه، لأن الماء والنار اضداد، ولكنه جمعهم فى اتقان لكى ما يوضح بطريقة خارقة، قوة إلهه.

هكذا بذبيحة إيليا العجيبة أَظهرت لنا ومضة من ومضات العهد القديم عن سر المعمودية وإشارة إلى طقس التغطيس ثلاث مرات. فالنار اشتعلت بالمياه التى سكبت ثلاث مرات عليها، وهذا يوضح لنا أنه حينما توجد المياه السرية، هناك يشتعل الروح النارى الذى يحرق كل ما هو غير صالح، وينير المؤمنين".

11. إخراج الفأس من الماء: أراد بنو الأنبياء أن يقيموا لأنفسهم بيوتاً، فاستأذنوا أليشع النبى فسمح لهم، بينما كان أحدهم يقطع خشبة سقطت الفأس الحديدية فى الماء، فألقى النبى خشبة فى الماء فللحال طفت الفأس على وجه المياه، فعن هذا الأمر يقول سفر الملوك الثانى: "وَقَالَ بَنُو الأَنْبِيَاءِ لأليشع: «هُوَذَا الْمَوْضِعُ الَّذِي نَحْنُ مُقِيمُونَ فِيهِ أَمَامَكَ ضَيِّقٌ عَلَيْنَا. فَلْنَذْهَبْ إِلَى الأُرْدُنِّ وَنَأْخُذْ مِنْ هُنَاكَ كُلُّ وَاحِدٍ خَشَبَةً، وَنَعْمَلْ لأَنْفُسِنَا هُنَاكَ مَوْضِعًا لِنُقِيمَ فِيهِ». فَقَالَ:

«اذْهَبُوا». فَقَالَ وَاحِدٌ: «اقْبَلْ وَاذْهَبْ مَعَ عَبِيدِكَ». فَقَالَ: «إِنِّي أَذْهَبُ». فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ. وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الأُرْدُنِّ قَطَعُوا خَشَبًا. 5وَإِذْ كَانَ وَاحِدٌ يَقْطَعُ خَشَبَةً، وَقَعَ الْحَدِيدُ فِي الْمَاءِ. فَصَرَخَ وَقَالَ: «آهِ يَا سَيِّدِي! لأَنَّهُ عَارِيَةٌ». فَقَالَ رَجُلُ اللهِ: «أَيْنَ سَقَطَ؟» فَأَرَاهُ الْمَوْضِعَ، فَقَطَعَ عُودًا وَأَلْقَاهُ هُنَاكَ، فَطَفَا الْحَدِيدُ. فَقَالَ: «ارْفَعْهُ لِنَفْسِكَ». فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهُ" (2مل6: 1–6).

هذه الحادثة كما يقول القديس امبروسيوس تكشف عجز القوة البشرية عن خلاصها، وتبين الحاجة إلى قوة الله لخلاصها فى المعمودية. كما يقول فى ذلك أيضاً القديس الشهيد يوستين: "ألقى أليشع قطعة خشب على مجرى الأردن، فاسترد من الماء حديد الفأس الذى أراد أبناء الأنبياء أن يقطعوا به الخشب لبناء بيوتهم. هكذا خَلصَّنا مسيحنا فى المعمودية من خطايانا الثقيلة بصلبه على الخشبة والعماد فى الماء".

كما يتحدث القديس ديديموس الضرير عن غنى مياه المعمودية من خلال حادثة نعمان السريانى فيقول: "أعلن أليشع رجل الله الذى سأل: أين سقطت الفأس؟ كان رمزاً لله الذى يأتى بين البشر، هذا الذى سأل آدم: أين أنت؟!... سقوط الحديد فى الأعماق المظلمة هو رمز لثقل الطبيعة البشرية الخالية من النور .... الخشبة التى أخذت والقيت فى الموضع حيث كان الشىء الذى يبحث عنه ترمز للصليب المجيد. والأردن هو المعمودية الخالدة. حقاً، من أجلنا عين خالق الأردن أن يعتمد فى الأردن. أخيراً فإن الحديد الذى طفا على المياه وعاد إلى من قد فقده، يشير إلى أننا فى المعمودية نصعد إلى الأعالى السماوية، ونجد النعمة التى هى مسكننا الحقيقى القديم".

فإن ظن إنسانُ أن هذا الموضوع ليس نبوة عن المعمودية، فلماذا سجله الكتاب المقدس؟

12. صعود إيليا إلى السماء كان بعد عبور الأردن: "فَقَالَ إِيلِيَّا لأَلِيشَع: «امْكُثْ هُنَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى بَيْتِ إِيلَ». فَقَالَ أَلِيشَع: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ». وَنَزَلاَ إِلَى بَيْتِ إِيلَ. فَخَرَجَ بَنُو الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ إِيلَ إِلَى أَلِيشَع وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّهُ الْيَوْمَ يَأْخُذُ الرَّبُّ سَيِّدَكَ مِنْ عَلَى رَأْسِكَ؟» فَقَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَعْلَمُ فَاصْمُتُوا». ثُمَّ قَالَ لَهُ إِيلِيَّا: «يَا أَلِيشَع،

امْكُثْ هُنَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى أَرِيحَا». فَقَالَ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ». وَأَتَيَا إِلَى أَرِيحَا. فَتَقَدَّمَ بَنُو الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي أَرِيحَا إِلَى أليشع وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّهُ الْيَوْمَ يَأْخُذُ الرَّبُّ سَيِّدَكَ مِنْ عَلَى رَأْسِكَ؟» فَقَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَعْلَمُ فَاصْمُتُوا». ثُمَّ قَالَ لَهُ إِيلِيَّا: «أُمْكُثْ هُنَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى الأُرْدُنِّ». فَقَالَ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ». وَانْطَلَقَا كِلاَهُمَا. فَذَهَبَ خَمْسُونَ رَجُلاً مِنْ بَنِي الأَنْبِيَاءِ وَوَقَفُوا قُبَالَتَهُمَا مِنْ بَعِيدٍ. وَوَقَفَ كِلاَهُمَا بِجَانِبِ الأُرْدُنِّ. وَأَخَذَ إِيلِيَّا رِدَاءَهُ وَلَفَّهُ وَضَرَبَ الْمَاءَ، فَانْفَلَقَ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ، فَعَبَرَا كِلاَهُمَا فِي الْيَبَسِ" (2مل2:2-8).

يقول العلامة أوريجينوس: "يليق بنا أن نلاحظ أنه قبل أن يحمل إيليا فى الزوبعة إلى السماء، أخذ رداءه ولفه ثم ضرب به الماء، فانشق إلى اثنين، وعبر هو وأليشع (2مل2: 8). بهذا اعتمدا فى الأردن، لأن بولس كما سبق فقلت، دعى هذه المياه العجيب عماداً. بهذا تهيأ إيليا للارتفاع".

كما يقول القديس كيرلس الأورشليمى: "ارتفع إيليا إلى السماء، ولكن ليس بدون ماء. لقد بدأ بعبور الأردن بعد ذلك حملته المركبة إلى السماء".

13. دخول يشوع أرض الموعد بعد عبور نهر الأردن: عند دخول يشوع أرض الميعاد أمره الله أن يجعل الكهنة يحملون تابوت العهد، وينفخون فى الأبواق. وعند لمس الكهنة مياه الأردن بأرجلهم تنشق المياه. فسر انشقاق ماء نهر الأردن هو نزول الكهنة فى الماء حاملين تابوت العهد (يش3: 15-17).

أما تابوت العهد فيمثل حضور الله مع شعبه. ومجىء الشعب إلى الكهنة حاملى التابوت (أى أمام الله) قبل عبور الأردن يمثل التوبة. إذ يتقدم الخاطىء إلى الكاهن أمام الله، ثم بعد ذلك عبور نهر الأردن الذى يرمز إلى المعمودية بعد التوبة. كما أنه فى العبور قديماً، عبر شعب إسرائيل من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية للنهر، والسيد المسيح يجعلنا نعبر من الأرض إلى ملكوت السموات.

فى ذلك يقول القديس كيرلس الأورشليمى: يقدم لنا يشوع بن نون رمزاً للمسيح بطرق كثيرة منها. بعد عبور يشوع الأردن بدأ يمارس قيادته للشعب، لهذا اعتمد المسيح أولاً ثم بدأ حياته العملية. ثم أقام ابن نون اثنى عشر رجلاً لتقسيم الميراث، وأرسل الرب يسوع اثنى عشر رسولاً إلى كل العالم يكرزون بالحق. فالذى كان رمزاً أنقذ راحاب لأنها آمنت، والذى هو الحق قال إن العشارين والزناة يسبقونهم إلى ملكوت الله. كما أن أسوار أريحا سقطت لمجرد سماعها صوت الأبواق فى وقت الرمز، وبكلمة يسوع سقط هيكل أورشليم أمام أعيننا ولم يبق حجر على حجر".

وفى مقارنة للقديس أثناسيوس الرسولى يقول: "يشوع بن نون العبد مدبر العهد القديم، ويسوع ابن الله مدبر العهد الجديد. وهناك تابوت العهد من الخشب الميت وقد زين بصفائح ذهب، أما هنا فتابوت العهد هو ناسوت المسيح من لحم ودم حى طاهر مزين بالروح القدس. هناك اثنا عشر حجراً صماء بلا روح، وهنا اثنا عشر تلميذاً ورسولاً روحيين ومقدسين. لقد انشق الأردن ووقفت المياه النازلة من فوق فى جانب واحد، بينما نزلت المياه المنحدرة نحو البحر المالح. هنا يظهر فرق الإيمان بالمسيح بين المؤمنين وغير المؤمنين. فيقف المؤمنون والمولودون من الماء والروح فى جانب واحد على العذوبة ككنيسة واحدة مؤسسة على صفات الإيمان، بينما ينحدر غير المؤمنين النازلون إلى أسفل نحو البحر المالح الذى هو البحر الميت، وإلى ملوحة الكفر".

فى ذلك يقول القديس غريغوريوس النيسي: "لم يتسلم الشعب العبرانى أرض الموعد قبل عبوره الأردن تحت قيادة يشوع، وقد أقام اثنى عشر حجراً فى النهر كرمز واضح للاثنى عشر خادماَ للمعمودية. لقد تمجد الأردن لأنه يجدد أناساً، ويزرعهم فى فردوس الله".

14. شريعة تطهير الأبرص: فى طقس هذه الشريعة، كان الكاهن يرش الشخص المريض بواسطة العصفور الحى بالدم والماء، فيعلن تطهيره. الماء هنا رمز للمعمودية التى يقبلها الإنسان بعد إيمانه بالدم المسفوك من أجل خلاصه علي الصليب (لا14: 4–7).

15. طقس الاغتسال في العهد القديم: كان رمزاً للاغتسال من الخطية من خلال معمودية العهد الجديد. فى ذلك يقول داود النبى: "اغْسِلْنِي كَثِيراً مِنْ إِثْمِي وَمِنْ خَطِيَّتِي طَهِّرْنِي ... اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ" (مز51: 2–7). كما يأمر الرب بنى إسرائيل قائلاً: "اِغْتَسِلُوا. تَنَقُّوا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ" (إش1: 16). ويقول أيضاً: "فَتَسْتَقُونَ مِيَاهاً بِفَرَحٍ مِنْ يَنَابِيعِ الْخَلاَصِ" (إش12: 3). وأيضاً يقول: "إِذَا غَسَلَ السَّيِّدُ قَذَرَ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ وَنَقَّى دَمَ أُورُشَلِيمَ ..." (إش4:4). هكذا يقول: "أَيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعاً هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاهِ ..." (إش55: 1). كما أن الرب على فم إرميا النبى يقول: "وَأُطَهِّرُهُمْ مِنْ كُلِّ إِثْمِهِمِ الَّذِي أَخْطَأُوا بِهِ إِلى وَأَغْفِرُ كُلَّ ذُنُوبِهِمِ الَّتِي أَخْطَأُوا بِهَا إِلى وَالَّتِي عَصُوا بِهَا عَلَيَّ" (أر33:8). كما يقول الوحى على فم حزقيال: "وَأَرُشُّ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِراً فَتُطَهَّرُونَ. مِنْ كُلِّ نَجَاسَتِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَصْنَامِكُمْ أُطَهِّرُكُمْ" (حز36:25).

هكذا نجد عزيزى القارىء أن العهد القديم ملىء بالرموز والإشارات عن أهمية سر المعمودية من الناحية الخلاصية.

الفصل الرابع

رموز المعمودية في العهد الجديد

حسب التقليد الكنسى فأن هناك رمزان لسر المعمودية فى العهد الجديد هما: بركة بيت حِسدا[8] الذى ورد فى بشارة القديس يوحنا (الأصحاح الخامس). ومعجزة تفتيح عيني المولود أعمى كما وردت فى بشارة القديس يوحنا (الأصحاح التاسع). وأول من أشار من الآباء إلى بركة بيت حسدا، كعلامة للمعمودية، هو العلاَّمة ترتليان (160– 225م). وأما القديس كيرلس الأول الإسكندرى (412–444م) فقد انفرد بتفسير معجزة شفاء المولود أعمى طقسياً وليتورجياً.

بركة بيت حِسدا

فى شفاء مقعد بركة بيت حسدا **يقول العلامة ترتليان** (160– 225م): "ربما بدا لكم أن هذا شيئاً جديراً أن يكون الملاك موجوداً فى المياه، لكن هناك مثال على هذا الذى يحدث فى حادثة سابقة. كان ملاك ينزل ويحرك مياه بركة "بَيْتُ حِسْدَا" (يو5: 2)، وكان أول من ينزل من المرضى الذين يراقبون تحريك المياه بعد أن يغتسل يُشفى، والشفاء الجسدى هو رمز للشفاء الروحى. لأن القاعدة هى أن الأشياء الجسدية ترمز مسبقاً إلى الأمور الروحية"[9].

ويقول القديس أمبروسيوس أسقف ميلان (339 – 397م): "لأَنَّ مَلاَكًا كَانَ يَنْزِلُ أَحْيَانًا فِي الْبِرْكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ. فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلاً بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ" (يو4:5)، هذه البركة كانت فى أورشليم حيث كان يبرأ فيها واحد كل عام. ولكن لم يكن أحد يبرأ قبل أن ينزل الملاك بسبب أولئك الذين لا يؤمنون. كان الماء يتحرك كعلامة تدل على أن الملاك قد نزل ... كانت عندهم علامة، وأنتم عندكم إيمان، لأولئك نزل ملاك ولكم أرسل الروح القدس، لأجل أولئك تحركت المخلوقات، ولأجلكم رب المخلوقات نفسه يعمل ... حينذاك شُفي إنسان

---

8 تنطق بيت حِسدا وليس بيت حَسدا

9 العلامة ترتليان: مقالة عن المعمودية فقرة (5).

واحد، والآن أصبح الكل معافٍ ... تلك البركة كانت مثالاً حى تؤمنوا أن قوة الله تحل على هذا الجرن (جرن المعمودية)"[10].

ويؤكد القديس ديديموس الضرير (313–398م) ذلك بقوله: "إن المسكونة كلها تتفق معنا فى تفسير بيت حسدا على أنها إشارة إلى المعمودية. وهذا مجرد رمز وليس الحقيقة، لأن الرمز هو مؤقت أما الحقيقة فهى أبدية. ولهذا السبب قيل أنه مرة فى السنة كان الملاك ينزل ليحرك المياه، وكان مريض واحد فقط هو الذى يُشفى، أى الذى ينزل أولاً، وكان الشفاء من الأمراض الجسدية، وليس من الأمراض الروحية. لكن المعمودية الحقيقية التى تأسست بعد ظهور ابن الله وحلول الروح تحدث كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، وتحرر إلى الأبد من الخطايا كل من ينزل فى المياه"[11].

تحدث عن بيت حسدا أيضاً القديس يوحنا ذهبى الفم (347–407م)، فى عظة له (رقم 36) على إنجيل القديس يوحنا وكذلك القديس غريغوريوس النزينزى (329–389) فى مقالة له عن المعمودية.

شفاء المولود أعمى

تمارس الكنيسة القبطية منذ زمن قديم، المعمودية فى الأحد المعروف باسم "أحد المولود أعمى" ولازال هذا الأحد من الصوم المقدس الكبير يُسمى (أحد التناصير)، ذلك للارتباط الوثيق بين الحدثين. والقديس كيرلس الكبير (412–444م) يتحدث عن ذلك فيقول: "إذا قبلنا معجزة شفاء المولود أعمى كرمز لدعوة الأمم، فإننا سوف نخبر بهذا السر ومعناه. وفى إيجاز سوف نشرحه أولاً، وأيضاً لأن المناسبة تدعونا إلى تبنى هذا التفسير. بعد أن ترك الرب هيكل اليهود، رأى المولود أعمى، فقرر المخلص أن يشفى الرجل دون أن يطلب أحد منه ذلك أو حتى

[10] القديس أمبروسيوس أسقف ميلان: الأسرار فصل (4).
[11] القديس ديديموس الضرير: فى الثالوث 1: 11.

يترجاه. المعجزة ترينا أن جموع الأمم لم تتركَ الله رغم أنهم كانوا فى خطأ، لكن الله بالطبيعة صالح، بإرادته وحده جاء وأظهر رحمته ناحيتهم ... وقد حدثت المعجزة فى يوم السبت، أن السبت وهو آخر أيام الأسُبوع يرمز إلى نهاية الدهر الذى ظهر فيه المخلص لكى يضىء للأمم. وبمسحة الطين صنع عملاً صالحاً إذ أعاد وأرجع ما كان ناقصاً فى عين الرجل، وهو بهذا أرانا أنه هو الواحد الذى خلقنا فى البدء، وأنه خالق ومبدع العالم. بل إن قوة هذا الفعل تحتوى على معنى سرى عام، لم يكن ممكناً للأمم أن ينزعوا العمى الذى أصابهم ليروا النور المقدس واللاهوت، أى يحصلوا على معرفة الثالوث الواحد القدوس إلا إذا اشتركوا فى الجسد المقدس، وغسلوا خطاياهم جاحدين الشيطان وكل سلطانه فى المعمودية المقدسة ... نحن بالإيمان نغتسل ليس لإزالة وسخ الجسد كما هو مكتوب "الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ. لاَ إِزَالَةُ وَسَخِ الْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ اللهِ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (1بط3 : 21)، بل إزالة دنس وقذارة عيون عقولنا لكى نرى فى المستقبل بعدما تطهرنا وصرنا أنقياء، نرى الجمال الإلهى نفسه "قَالَ هذَا وَتَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: مُرْسَلٌ، فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا"[12].

وفى الكنيسة الأولى كان يقرأ على المعمدين الجدد ثلاث قراءات من الإنجيل هم: الحديث مع نيقوديموس، ومعجزة شفاء المقعد، ومعجزة تفتيح عينى المولود أعمى.

[12] القديس كيرلس الإسكندرى: تفسير انجيل يوحنا، الكتاب السادس، يوحنا9 : 6.

الفصل الخامس

دور المعمودية فى الخلاص

ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص

المعمودية سر الخلاص، والدخول إلى الحياة الأبدية، أما ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص فيتبن من التالى:

1. **يقول يوحنا المعمَّدان:** "أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ" (مت3:11).
2. **يقول السيد المسيح رب المجد عنها:** "ان كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو3:5) "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16)، "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت28: 19). يتضح هنا أن من لا يعتمد يدان ولا يستحق الدخول إلى ملكوت الله.
3. **من أقوال الرسل الأطهار:** قال بطرس الرسول لما سأله الذين قبلوا الإيمان بالمسيح فى أورشليم ماذا نصنع؟ "فَقَالَ لَهُمْ بُطْرُسُ :«تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع2: 37،38). كما يقول بولس الرسول: "لا بأعمال فى بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلصنا، بغسل الميلاد الثانى، وتجديد الروح القدس (تى3:5).
4. **الخصي الحبشي وطلبه للمعمودية:** "وَفِيمَا هُمَا سَائِرَانِ فِي الطَّرِيقِ أَقْبَلاَ عَلَى مَاءٍ، فَقَالَ الْخَصِيُّ:«هُوَذَا مَاءٌ. مَاذَا يَمْنَعُ أَنْ أَعْتَمِدَ؟»" (أع8: 36).
5. **شاول الطرسوسي بعد إيمانه اعتمد:** "وَالآنَ لِمَاذَا تَتَوَانَى؟ قُمْ وَاعْتَمِدْ وَاغْسِلْ خَطَايَاكَ دَاعِيًا بِاسْمِ الرَّبِّ" (أع22: 16).
6. **سجان فليبي:** "آمِنْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ" (أع16: 31).

7. **ليديا بائعة الأرجوان:** عندما أمنت اعتمدت وهي وكل أهل بيتها "فَلَمَّا اعْتَمَدَتْ هِيَ وَأَهْلُ بَيْتِهَا طَلَبَتْ قَائِلَةً: إِنْ كُنْتُمْ قَدْ حَكَمْتُمْ أَنِّي مُؤْمِنَةٌ بِالرَّبِّ، فَادْخُلُوا بَيْتِي وَامْكُثُوا فَأَلْزَمَتْنَا" (أع16:15).

8. **كرنيليوس:** الذي عمده القديس بطرس الرسول (أع10: 44-47).

9. بدون المعمودية لا نقدر أن نشترك في باقى الأسرار. يقول القديس كيرلس الأورشليمى: "يا لخطورة من يتقدم للعماد فى خداع. لكنه هو (الروح القدس) يجرب النفس. أنه لا يلقى لآلئه قدام الخنازير، فإن جئت برياء فإنه حتى وإن عمدوك الناس، لا يعمدك الروح القدس. وأن تزكيت بإيمان فإن الناس يخدمون (طقس السر) فيما هو منظور، والروح القدس يهب ما هو غير منظور(الولاده والخلاص)".

ويقول أيضاً: "يا إخوة، حقاً إن المعمودية أمر خطير، يليق بكم أن تقتربوا إليها بكل اهتمام صالح. لقد اقتربت أمتثال كل واحد منكم فى حضرة الرب، أمام عشرات الألوف من الأجناد الملائكية والروح القدس يختم نفوسكم. إنكم تسجلون فى جيش ملك عظيم. لذلك تزودوا بارتدائكم، ليس لباس لماعاً، بل ورع النفس بضمير صالح".

عمل الروح القدس في المعمودية

الروح القدس يقدس مياه المعمودية، ومعنى تقديس المياه أن تنال قوة إلهية غير طبيعية أى ليست من طبيعة المياه لكي تلد الإنسان من جديد. في ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "ليست المياه هي صاحبة الفاعلية، ولكنها تصبح فعالة متى قبلت نعمة الروح القدس، عندئذ تزيل تماماً خطايانا".

ويقول القديس إبيفانيوس: "المياه وحدها لا يمكن أن تطهرنا، ولكن القوة التى في المياه ثم إيمان وعمل الله والرجاء في القوة التى تكمل الأسرار، أى استدعاء مصدر القداسة (الروح القدس)".

كما يقول القديس كيرلس: "المياه البسيطة بعد استدعاء الروح والمسيح والآب تتقبل قوة جديدة للتقديس".

ثالثا: معمودية الأطفال

المعمودية هى باب دخول الإنسان إلى ملكوت النعمة، لذلك وجب تعميد الجميع على السواء كباراً وصغاراً، غير أن بعض المحدثين يزعمون ويعلمون بعدم لزوم المعمودية للأطفال، وانكروا فاعليتها. فقد زعم بيلاجيوس الهرطوقى: أن خطية آدم أضرته هو وحده ولم تضر الجنس البشرى، وأن الأطفال يولدون في الحالة التي كان عليها آدم الأول قبل السقوط. وقد انبرى له آباء الكنيسة، وخاصة القديس أوغسطينوس: مفنداً ضلاله وأثبت من الكتب المقدسة عقيدة انتشار الخطية الأصلية من آدم إلى الجنس البشري كله. وبالتالى حاجة الأطفال إلى المعمودية المقدسة. وقد حرم في مجمع قرطاجنه (قريبة من مدينة تونس) وثبت مجمع أفسس الأول سنة 431م حكمه بالحرم على بيلاجيوس وبدعته.

للرد على هذا الزعم نقول:

1. المعمودية ضرورية ولازمة وبدونها لا يمكن الدخول إلى ملكوت السموات، إذا لم يتم عمادهم قبل وفاتهم ففي هذا منعهم من الدخول لملكوت السموات، بينما لا يوجد مانع يمنعهم من الإشتراك في هذه النعمة، وبالأخص لطهارة نفوسهم.
2. إن الأطفال مشتركون في الخطية الجدية مثل الكبار، ولا يمكنهم التطهير منها إلا من خلال المعمودية، وذلك بشهادة الرب نفسه: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ" (يو3: 5–6). فيجب أن يولد الأطفال هذه الولادة الثانية الروحية. فيكونوا مستحقين الدخول إلى ملكوت الله.
3. بالمعمودية تُعطى للأطفال الفرصة لممارسة الحياة داخل الكنيسة، والتمتع بكل أسرارها الإلهية ومفاعيلها الروحية فى حياتهم. بهذا نعدهم إعداد عملياً لحياة الإيمان، وإن تركناهم خارجا نكون قد حرمناهم من وسائط النعمة والإيمان.

4. المشابهة بين الختان في العهد القديم والمعمودية في العهد الجديد توجب عماد الأطفال، كما كان الطفل يختن في اليوم الثامن، وكذلك من المشابهة بين عبور البحر الأحمر والمعمودية. فكما عبر الجميع كباراً وصغاراً هكذا تكون المعمودية للجميع الكبار والصغار.

5. أما عن قول الرب: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16)، فالمقصود به هو الكبار الذين في سن يسمح بإدراك معاني الإيمان، ولهذا نحن لا يمكن أن نعمد الكبار إلا إذا آمنوا عملا بقول الرب. أما من جهة الأطفال فنطبق عليهم قول الرب: "دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت19 :14).

6. إن الرب يسوع المسيح نفسه بارك الأطفال بركة خاصة ودعاهم إليه قائلاً: "دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت19: 14، 18:3، مر10: 15، لو18: 15–17) وقد سبق وقدس بعضهم، وملأهم من روحه، كما قدس إرميا النبى حيث يقول عنه الكتاب المقدس: "قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ" (إرميا1: 5). ويوحنا الذى إمتلأ من الروح القدس من بطن أمه (لو1:15–41). فليس هناك ما يمنع الأطفال من تجديدهم وامتلائهم بالروح القدس، لا من جهة الله، ولا من جهة طبيعتهم. وإذا تأملنا في أقوال السيد المسيح الحلوة عنهم نرى فيها ما فى قلبه القدوس من المحبة والاعتبار لهم فنرى أنه جعلهم مقياساً للكبار في الدخول إلى ملكوت السموات بقوله: "إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت18: 3).

7. لقد أوضح السيد المسيح أن قبولهم هو بمنزلة قبول شخصه المبارك فقال: "وَمَنْ قَبِلَ وَلَدًا وَاحِدًا مِثْلَ هذَا بِاسْمِي فَقَدْ قَبِلَنِي" (مت18: 5). كما أنه نهى عن احتقارهم لاعتبارهم في عينى الله بقوله: "انْظُرُوا لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلاَئِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلَّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت18: 10).

8. إن الأولاد بمنزلة الحملان الصغار، والمسيح كراع صالح يقود الخراف الكبار والحملان الصغار. وقد سبق إشعياء النبى فوصف المسيح بقوله: "كَرَاعٍ يَرْعَى قَطِيعَهُ. بِذِرَاعِهِ يَجْمَعُ

الْحُمْلاَنَ وَفِي حِضْنِهِ يَحْمِلُهَا وَيَقُودُ الْمُرْضِعَاتِ" (إش40: 11) ... فحينما قدموا الأطفال إلى الرب يسوع "فَاحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ" (مر10:16).

9. يجب أن لا ننسى أن الله عندما دعا شعبه للخروج من مصر، للدخول إلى أرض كنعان أرض الموعد وقاومهم فرعون وأراد منع أولادهم بقوله: "... اذْهَبُوا أَنْتُمُ الرِّجَالَ وَاعْبُدُوا الرَّبَّ" (خر10: 7-11) لم يسلم موسى بذلك بل قال له: "نَذْهَبُ بِفِتْيَانِنَا وَشُيُوخِنَا. نَذْهَبُ بِبَنِينَا وَبَنَاتِنَا بِغَنَمِنَا وَبَقَرِنَا. لأَنَّ لَنَا عِيداً لِلرَّبِّ" (خر10: 9). فيمثل هذا القول يجب أن نجاوب أولئك يحاولون منع الأولاد من الدخول إلى ملكوت النعمة معنا، ويريدون فصلهم عنا. وإذا كان الرب باركهم وقبلهم ودعاهم إليه ودافع عن حقوقهم فمن ذا الذى يحتقرهم ويرفضهم؟!.

10. عندما ندقق على شرط الإيمان فقط، لكان من الممكن أن تمنع المعمودية أيضاً كل الكبار الذين ليس لهم النضوج العقلى أو الفكرى الكافى لإدراك حقائق الإيمان، وعمقها. مثل كثير من الريفيين، ومن العمال الأميين، وأشباه المتعلمين، والذين ليس لهم المقدرة فى فهم عمق الحقائق اللاهوتية. فما نصيب كل أولئك من الإيمان؟!. هل نمنعهم كما نمنع الأطفال أيضاً؟!.

11. يقول البعض: وماذا يحدث إذا كبر الطفل ورفض الإيمان؟!.. يكون مثل المرتد، النعمة التى أخذها فى المعمودية، يكون قد رفضها بحرية إرادته، ونحن نكون قد أدينا واجبنا نحوه. مثل هذا الإنسان يكون قد بدا بالروح وكمل بالجسد، كما يقول القديس بولس الرسول: "أَهَكَذَا أَنْتُمْ أَغْبِيَاءُ! أَبَعْدَمَا ابْتَدَأْتُمْ بِالرُّوحِ تُكَمَّلُونَ الآنَ بِالْجَسَدِ؟" (غل3:3). لكن الاحتمال الأكبر هو أن الطفل الذى نعمده فى صغره ويحيا فى الكنيسة ويتذوق كل وسائط النعمة فيها لا يكون عرضه للانحراف وترك الإيمان مثل الذى نتركه بلا عماد حتى كبره.

12. إن الذين ينكرون معمودية الأطفال إنما ينكرون لزوم المعمودية للخلاص: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16) لأنهم لو آمنوا بلزوم المعمودية لكان من الخطورة أن يحرموا الطفل من الخلاص. وما داموا يشترطون الإيمان للخلاص ويرون الأطفال بلا إيمان، فما مصير الأطفال فى نظرهم وهم بلا معمودية، وبلا إيمان؟!. هل يخلصون بدونها؟! ويبقى السؤال بلا جواب.

13. نحن نعمد الأطفال لأن فى الكتاب ما يشير ضمنا إلى هذا فيما ذكره الكتاب من عماد أسرة بأكملها أو شخص وكل بيته، وليس من المعقول أن كل هؤلاء الذين آمنوا لم تكن فى عائلاتهم أطفال! والأمثلة على ذلك كثيرة فى الكتاب المقدس من بينها:

- **عماد سجان فيلبى:** قال له القديسان بولس وسيلا: "آمِنْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ" (أع16: 31). والمقصود هو أن إيمانه سيكون الخطوة الأولى التى تقود أهل بيته إلى الخلاص. ولذلك قيل بعدها: "... وَكَلَّمَاهُ وَجَمِيعَ مَنْ فِي بَيْتِهِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ". ثم يقول الكتاب المقدس: "وَاعْتَمَدَ فِي الْحَالِ هُوَ والَّذِينَ لَهُ أَجْمَعُونَ. وَلَمَّا أَصْعَدَهُمَا إِلَى بَيْتِهِ قَدَّمَ لَهُمَا مَائِدَةً وَتَهَلَّلَ مَعَ جَمِيعِ بَيْتِهِ" (أع16: 32–34). ولم يستثن الكتاب المقدس الأطفال من كل أهل بيت سجان فيلبى بل قال عن عماده: "هُوَ والَّذِينَ لَهُ أَجْمَعُونَ" بما فيهم من أطفال.
- فى قصة عماد ليديا بائعة الأرجوان قيل أنها: "فَلَمَّا اعْتَمَدَتْ هِيَ وَأَهْلُ بَيْتِهَا طَلَبَتْ قَائِلَةً: إِنْ كُنْتُمْ قَدْ حَكَمْتُمْ أَنِّي مُؤْمِنَةٌ بِالرَّبِّ، فَادْخُلُوا بَيْتِي وَامْكُثُوا فَأَلْزَمَتْنَا" (أع16: 15).
- كذلك قال القديس بولس الرسول: "وَعَمَّدْتُ أَيْضاً بَيْتَ اسْتِفَانُوسَ" (1كو1: 16). فهل كل هذه البيوت لم يكن فيها أطفال؟!.
- الذين اعتمدوا فى يوم الخمسين لم يذكر الكتاب المقدس أنه لم يكن بينهم أطفال: "لأَنَّ الْمَوْعِدَ هُوَ لَكُمْ وَلأَوْلاَدِكُمْ وَلِكُلِّ الَّذِينَ عَلَى بُعْدٍ كُلِّ مَنْ يَدْعُوهُ الرَّبُّ إِلَهُنَا" (أع2: 39).

14. ممارسة معمودية الأطفال قديمة فى التاريخ، ونذكر من بينها خلاف كان بين القديس أوغسطينوس والقديس جيروم حول أصل النفس وهل هى مولودة أم مخلوقة؟! وكان القديس أوغسطينوس يقول: (أنها تولد مع الإنسان) والقديس جيروم يقول: (أنها مخلوقة) فقال القديس أوغسطينوس: "إن كانت مخلوقة فهى لم ترث خطية آدم، وإذن فلماذا نعمد الأطفال؟" ولم يجد جيروم إجابة على هذا السؤال.

15. كما أن الكتاب المقدس لا توجد فيه آية واحدة تنص على عدم معمودية الأطفال.

16. أما من جهة الإيمان ليس عند الأطفال ما يمنع الإيمان مطلقا، لأنهم لم يدخلوا فى مرحلة الشك والفحص والتفكير التى عند الكبار. وهم فى إيمان يصدق كل شىء ويقبله. فليس

عندهم رفض للإيمان، ولا مقاومة للإيمان، ولا سلبيات تمنع ملكوت الله. فنحن نعمد الأطفال على إيمان والديهم، وهذا الأمر – فى جوهره – له أمثلة كثيرة جداً فى الكتاب المقدس:

• كان الختان يرمز إلى المعمودية، وبه كان ينضم المختون إلى عضوية شعب الله حسب العهد الذى أبرمه مع أبينا إبراهيم: "**فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**" (تك17: 11). والمعروف أن الختان كان يتم فى اليوم الثامن حسب أمر الرب "**اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ**" **(تك17: 12)**. فالطفل فى اليوم الثامن من عمره ماذا كان يدرى عن العهد الذى بين الله وأبينا إبراهيم؟ ماذا كان يدرى عن عضوية شعب الله؟ لا شئ بلا شك، ولكنه كان يختتن بإيمان والديه بهذا العهد ويصير عضواً فى شعب الله ومستحقا للوعود التى منحها الرب لأبينا إبراهيم كل ذلك بإيمان والديه.

• كان عبور البحر الأحمر يرمز إلى المعمودية، أو كان العبور معمودية فى حد ذاته، كما شرح القديس بولس الرسول: "وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ" (1كو10:2). فكان الخلاص من عبودية فرعون، رمزاً للخلاص من عبودية الخطية والشيطان والموت. وقد عبر البحر أشخاص كبار يعرفون وعد الله لموسى النبى، ويعرفون ماذا كانت عبوديتهم لفرعون، وما معنى خلاصهم منها بيد الله الحصينة. وبعبورهم البحر (أى العماد) خلصوا ... ولكن ماذا عن الأطفال الذين حملتهم أمهاتهم أو آباؤهم عابرين البحر بهم، لقد نالوا الخلاص بلا شك من العبودية وتعمدوا ولكن على إيمان الوالدين لأن أولئك الأطفال ما كانوا يدرون عن هذه الأمور شيئاً.

• أمر آخر قوى جداً، هو خلاص الأطفال من سيف الملاك المهلك بدم خروف الفصح حسب قول الرب لموسى عن ذبح الخروف، ورش الدم على عتبة البيوت وقوائمها: "فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ" (خر12: 13). وكان دم الخروف يرمز إلى السيد المسيح الذى به ننال الخلاص كما قال القديس بولس الرسول: "لأَنَّ فِصْحَنَا أَيْضاً الْمَسِيحَ قَدْ ذُبِحَ لأَجْلِنَا" (1كو5: 7). لذلك نجد سؤال يطرح نفسه وهو: ماذا كان إيمانهم الأطفال الذين خلصوا بدم

خروف الفصح؟! ما الذى كان يعرفونه عن العهد بين الله وموسى حول الفصح والنجاه بدمه من الهلاك؟!. بلا شك، لا شئ. لكنهم خلصوا بإيمان آبائهم الذين آمنوا بالدم وفاعليته، وأهمية دم الفصح للنجاه من الهلاك.

كذلك هؤلاء الأطفال الذين خلصوا بالختان، وبدم خروف الفصح، وبعبور البحر الأحمر. هل فهموا معانى كل هذه الأمور؟! لا شك أنهم قد تقبلوا هذا الخلاص مجاناً فى طفولتهم بإيمان الوالدين بعهود الله واتفاقاته مع البشر، وعندما كبروا فهموا فيما بعد، ودخلوا فى هذا الإيمان عملياً.

إن معلمى الكنيسة وآباءها الذين استلموا التعليم من الرسل الأطهار، مارسوا وعلموا بوجوب منح المعمودية للأطفال. ويذكرون صريحاً إن ذلك تقليد رسولى. هذه بعض الأقوال التى تبين ذلك.

❖ الآباء الرسل مارسوا سر المعمودية للجميع كباراً وصغاراً، فقد عمدوا يوم الخمسين ثلاثة آلاف نفس ... علاوة على إنه لا يوجد نص في الكتاب المقدس يمنع معمودية الأطفال.

❖ **قال القديس ايريناوس:** "إن يسوع المسيح أتى لكى يخلص جميع البشر، أعنى الذين به ولدوا ثانية لله. سواء أكانوا أطفالاً أو شباناً أو شيوخاً"[1].

❖ **العلامة أوريجانوس يقول:** "أن الكنيسة تسلمت من الرسل تقليد عماد الأطفال أيضاً، فالأطفال يعمدون لمغفرة الخطايا ليغتسلوا من الوسخ الجدى بسر المعمودية".

❖ **قال القديس كبريانوس:** "إذا كان الذين أخطاوا سابقاً أمام الله، اذ يؤمنون يأخذون صفح خطاياهم، ولا يمنع أحد منهم عن المعمودية والنعمة وإن كان قد فعل خطايا غير محصاة. فالأطفال الذين ضميرهم غير متفتح ولم يخطئوا فى شىء، والذين نظراً للخطية الكامنة فيهم وتدنسوا بها وصاروا مشاركى الموت الآدمى، يحتاجون أيضاً إلى المعمودية لأنها شرط لنوال الخلاص والصفح، ليس عن الخطايا الشخصية بل الأبوية. وقد حدد مجمعنا "بأنه لا يجوز أن

[1] القديس ايريناوس: ضد الهراطقة **11** :**22**، فصل **15:5**.

نمنع أحداً من المعمودية ونعمة الله الذى هو صالح ورءوف بالجميع. فالمعمودية هى للجميع وخصوصاً للأطفال الصغار، الذين بنوع خصوصى يستميلون انتباهنا وصلاح الله" (رسالة59).

❖ **كما أن القديس غريغوريوس الثاولوغوس** يقول: "هل عندك طفل، فلا يأخذن فيه الشر فرصة، بل ليقدس وهو رضيع وليكرس للروح منذ نعومة أظفاره، إنك تخافين أيتها الأم من الختم بسبب ضعف الطبيعة بما أنك ضعيفة النفس وقليلة الإيمان، لكن حنة قبل أن تلد صموئيل وعدت الله به، وبعد ولادته حالاً كرسته وبالحلة الكهنوتية ربته، ولم تخف من الضعف البشرى بل آمنت بالله"[1].

❖ يشهد القديس أُغسطينوس قائلاً: "إن المعمودية تقليد رسولى وإن الكنيسة دائماً تتمسك بتعميد الأطفال، متسلمة إياه من السلف، ولم تزل حافظة إياه إلى الآن وسوف تحفظه إلى الانقضاء أيضاً"[2].

❖ قرر آباء مجمع قرطاجنة سنة 481م: "هكذا أيضاً حكم أن كل من ينكر أن المعتمدين من الأولاد الصغار، المولودين حديثاً من بطون أمهاتهم يعتمدون لمغفرة الخطايا، أو يعترف بذلك ولكنه يزعم أنهم لم يشتركوا فى شىء من الخطية الجدية المحتاجة إلي التطهير بحميم الولادة الثانية. وينتج من هذا الزعم أن رسم المعمودية التى لمغفرة الخطايا فى هؤلاء الأطفال ليس بحقيقى بل مخترع ظاهرى، فليكن مفرزاً، لأن عبارة الرسول القائلة: "بإنسان واحد دخلت الخطية العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ اخطأ الجميع" لا يجب أن تفهم بمعنى آخر، إلا كما فهمتها دائماً الكنيسة الجامعة الممتدة والمنتشرة فى كل مكان. أعنى أن الاطفال أيضاً الذين لا يستطيعون أن يرتكبوا بذواتهم خطية ما من الخطايا، يعمدون بناء على قانون الإيمان. هذه معمودية حقيقية لمغفرة الخطايا ليتطهر فيهم بالولادة الثانية ما ورثوه من أجدادهم"[3].

---

[1] القديس غريغوريوس الثاولوغوس: خطاب فى المعمودية.

[2] القديس اغسطينوس: خطاب 176 عن المعمودية.

[3] قوانين مجمع قرطاجنة، القانون 121 عن المعمودية.

يتبين مما سبق أن منع الأطفال عن المعمودية بدعة غريبة مضادة الكتاب المقدس، وتعليم الآباء الرسل، وممارساتهم لهذه العقيدة، بل ونقول ولنظام الكنيسة منذ ابتدئها.

الفصل السادس

أنواع المعموديات

مارست الديانات الوثنية نوع من الاستحمامات المقدسة، أعتقاداً منهم أنها تجددهم، وتغفر لهم ذنوبهم. لذلك نجد أن العلامة ترتليانوس يعطى وصفاً للاستحمامات التى كانت معهودة فى الديانات الوثنية ذات الأسرار، ذلك خلال المقارنة بينها وبين العماد المسيحى فيقول: "وعلى هذا النحو يُدخلون الوثنيين بالاستحمام إلى بعض الأسرار، كأسرار إيزيس وميترا. بل يحملون آلهتهم على الاستحمام، وينضحون بالماء النقى منازلهم وهياكلهم، بل مدناً بأكملها لتطهيرها. وفى أثناء الألعاب الأبولونية والبيلوزية، يغتسلون بكثرة ظانين أنهم إذاك يتجددون وتغفر ذنوبهم".

1.معمودية موسى

يقول القديس باسيليوس الكبير: "إننى أعتقد أنه من الموافق بعد كل ما قلناه عن ملكوت السموات، أن نبحث أيضاً فى عجالة، الفرق بين معمودية موسى ومعمودية يوحنا المعمدان، لكى نصير مؤهلين بنعمة الله لأن ندرك سمو معمودية ربنا يسوع المسيح التى تفوق كليهما فى سمو مجدها الذى لا يُقارن. فبقدر ما أن الروح القدس متميز عن الماء، بالتأكيد فإن من يعتمد من الروح القدس متميز عمن يعتمد بالماء.

إن المعمودية التى سلمها الرب لموسى كانت تميز بين أنواع الخطايا التى لم تكن كلها تستوجب نعمة الغفران، وبالتالى فقد كان الأمر يتطلب تقديم ذبائح مختلفة. وكانت معمودية موسى تدقق للغاية فى مراسيمها الطقسية، وتستبعد إلى حين، كل من كان نجساً أو دنساً، وكانت تراعى فى تتميمها أوقاتاً معينة دون غيرها. وكل من نالوها كختم لتطيرهم".

2.معمودية المتهودين: وهى تسمى معمودية المتهودين، أو المهتدين أو الدخلاء. وكانت تمارس احتفالاً بدخول أحد الأمميين للديانة اليهودية. كان الماء فقط هو المستخدم فى طقسها. وهى معمودية لم يمكننا حتى الآن اقتفاء آثارها الأولى بدقة، ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها لم تبدأ قبل القرن الأول الميلادى، فلم يرد ذكرها لا فى أسفار العهد القديم، ولا فى أسفار ما بين العهدين، ولا عند فيلو، ولا عند يوسفيوس. فهى لذلك لم تكن مبكرة بالقدر الذى يسمح لها بأى تأثير على طقوس ومراسيم المعمودية المسيحية. أما عن طقوسها، فعندما يتحول المهتدون من الوثنية إلى اليهودية، رجالاً كانوا أم نساء، فإن الرجال منهم يختتنون أولاً حسب شريعة موسى، وبعد ذلك بأسبوع كانوا يقتبلون معمودية المهتدين. وهى معمودية كانت تُمنح للرجال والنساء والأطفال والعبيد من الأمم.

أما عن طقس هذه المعمودية فهو شبيه إلى حد عجيب بطقس معمودية العهد الجديد . كطقس وليس كمعنى . فعندما يقبل المهتدون الديانة اليهودية ويؤمنون بيهوه، أنه هو الإله، يخلعون ملابسهم الأممية، وينزلون عراة إلى الماء، ويقفون فى الماء الذى يغطيهم إلى حقويهم إن كانوا رجالاً، أو إلى رقابهم إن كن نسوة. أما الرابى اليهودى، فكان يذكرهم بأعمال يهوه العظيمة التى افتدى بها شعبه من عبودية مصر، ويشرح لهم الوصايا والعهود التى أعطاهم إياها على جبل سيناء. بعد ذلك يجيب المُعمَّد حديثاً بقوله: "سأفعل كل ما أمر به الرب وأكون طائعاً له". ثم يغطس نفسه فى الماء، وإذا يشترط عليه الربى شروطاً يجيب عليه بالإيجاب، ويكمل تغطيس نفسه فى الماء ثلاث مرات. وبعد الغطسة الثالثة يخرج المعمد حديثاً من الماء، ويرتدى ثيابه اليهودية الجديدة، ويقتبل اسماً يهودياً جديداً، ويصبح بذلك منتسباً إلى رعوية شعب إسرائيل ذا عمر يوم واحد. أما اسمه القديم، وصداقاته القديمة، وهويته السابقة، فقد صارت كلها فى حكم الموت، وغرقت فى الماء الذى خرج منه إنساناً يهودياً له شرف العضوية فى شعب إسرائيل.

كانت معمودية المهتدين تجرى على النساء أكثر بكثير جداً من الرجال. وإن كان العالم الليتورجى الأب جون هيرون لم يذكر السبب، إلا أننا نعتقد أن ذلك كان بسبب أن الرجال كانوا

يختتنون كعلامة وختم لانضمامهم إلى رعوية شعب إسرائيل. أما المرأة فقد كانت فى احتياج إلى طقس فعلى تمارسه شخصياً، لتحوز بموجبه أحقيه الانضمام إلى شعب الله، كى لا تكون علاقتها بالله وكعضوة فى شعبه المختار من خلال الرجل، إذ ظلت تعتبر أن هذا الأمر كان بمثابة امتهان لها، ولمكانتها فى المجتمع الجديد الذى انضمت إليه، أى ذلك المجتمع اليهودى الذى كانت فيه كل الوصايا والأحكام والشرائع والطقوس والامتيازات والعهود هى للرجل.

كما يذكر أن الأعداد الكبيرة من المهتديات اللاتى كن يقتبلن معمودية المهتدين أكثر من الرجال، وقد دفع ذلك بعض الربيين للاعتقاد بأن المعمودية، وليس الختان هى اللحظة الحاسمة التى ينضم فيها المهتدى إلى رعوية شعب إسرائيل.

كان الطقس الكامل لقبول المهتدى إلى اليهودية كان ينحصر فى ثلاثة أمور هى: الختان، المعمودية، تقديم الذبيحة. وكقانون عام، فإن هذه المعمودية كانت تتم بواسطة الشخص المعمد نفسه، والذى يُغَطِس نفسه بنفسه فى الماء، إلا أن هذا القانون العام كان له استثناء:

الأول: كان الأطفال الصغار يقادون إلى الماء بواسطة والديهم، ويعمدون فى الماء أيضاً بواستطهم.

الثانى: كان العبيد يقادون إلى الماء بواسطة سيدهم، حيث يقوم هو بنفسه بتعميدهم. أما إن سمح للعبد أن يعمد نفسه بنفسه، فإن الرابى يعلن أن عبوديته التى كانت جزءاً من حياته القديمة قد انتهت فى مياه المعمودية، حيث يخرج من الماء يهودياً حراً.

إلا أننا لا نتفق مع الأب جون هيرون على قوله: "إن معمودية المهتدين ربما بدأت كرمز، أو كطقس تطهير من نجاسات الوثنية"، فهى بدون شك أصبحت مع زمن العهد الجديد رمزاً أو طقساً للموت والميلاد الجديد، فمعنى المعمودية اليهودية كميلاد جديد كان غائباً عن ذهن معلمى الناموس، مثل نيقوديموس معلم الناموس الذى لم يستوعب قول الرب "يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ" (يوحنا3:7).

أما معمودية العهد الجديد فهى ليست رمزاً أو طقساً لموت ولميلاد جديد، لأننا بالحق، ندفن فيها بشبه موت المسيح، فتستتر حياتنا كلها فيه: "لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ" (كولوسى3:3). فمن المعمودية نخرج لابسين بالفعل إنسانً جديداً، لا كرمز بل حقيقة، تلك التى لا تستطيع العين البشرية أن تراها، ولا الذهن والمنطق أن يستوعبها أو يعبر عنها.

وعن معمودية المتهودين يقول ذهبى الفم (347–407): "علموا أن معمودية اليهود كانت معمودية أيضاً. ولكنها كانت تطهر الأدناس الجسدية، لا الأدناس الروحية وهى الخطايا ... وأما معموديتنا فليست هكذا، فهى أعظم شرفاً من تلك، وأجل نعمة، لأنها تنجى الإنسان من آثامه، وتطهر النفس وتنقيها، وتهب نعمة روحية" (العظة 15 على الأسرار).

معمودية الأسينيين: كان الأسينيون من الفرق اليهودية التى كانت تلجأ دائماً وباستمرار إلى الوضوءات والاغتسالات الطقيسة، وكانوا يعيشون فى قمران بجوار البحر الميت، فى أُطر حياة مشتركة ينتظرون مجئ المسيح. وكل من كان يريد الانضمام إلى هذه الجماعة، كان يتهيأ لمدة سنة كاملة لغسلات طقسية يرافقها خلع ملابس وارتداء أخرى. وقد كشفت الحفريات فى منطقة قمران عن عدد كبير من خزانات المياه التى تثير الدهشة لكثرتها، وهذه الخزانات كانت متصلة الخزان الرئيسى الذى يغذيها كلها، وذلك لتوفير المياه لجماعة كبيرة، عدا اثنين منها مزودة بدرج لتنظيم عملية نزول وصعود العدد الكبير من المستعملين لهذة الخزانات. مما دفع بعض العلماء إلى الاعتقاد بأنها حمامات خاصة لطقوس التطهيرات والغسلات الشرعية، إذ لا يمكن تصور كمية من الحمامات بهذا العدد، وبهذه الطريقة من الإعداد والتجهيز، لمجرد الاستخدام العادى.

كان عماد الأسينيين يرافقه أعمال توبة، وهو فى ذلك شبيه بمعمودية يوحنا المعمدان، حيث كانت المعمودية لا تتعدى فى مفعولها تقديم توبة لله، وتعهد بحياة مبررة أمامه، دون أن تمنح هذه المعمودية القوة اللازمة لتنفيذ هذه التوبة، والحياة بموجبها. فكانت تعهد من قبل الإنسان فقط، دون نوال فعل إلهى يصون هذا التعهد ويديمه. لذلك كانت تكرر دائماً. فعماد الأسينيين

كان يتكرر مراراً للشخص الواحد، ويعتبر المؤرخون اليوم أن عمادات الأسينين تندرج فى مراسيم التطهير والوضوء الذى مارسه كل اليهود.

3.معمودية التوبة (معمودية يوحنا المعمدان):

يحتل القديس يوحنا المعمدان موضع الحد الفاصل بين العهدين، فكان هو السابق الذى يعد الطريق أمام المسيا، وفعل ذلك بتعليمه للناس عنه، وتعميد من يقبل هذا التعليم، فكان تعليمه دعوة للتوبة، وكانت علامة التوبة هى قبول المعمودية كعربون الدخول إلى حياة جديدة، تلك الحياة التى وجدت تحقيقها عندما أكمل المسيا معمودية يوحنا التى للتوبة، بمعمودية الروح القدس ونار.

ومعمودية يوحنا المعمدان هى غير معمودية الدخلاء أو المهتدين، إذ أن القديس يوحنا المعمدان قد مارسها لليهود كما للأمم أيضاً. فى ذلك يقول إنجيل القديس مرقس: "وَخَرَجَ إِلَيْهِ جَمِيعُ كُورَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَأَهْلُ أُورُشَلِيمَ وَاعْتَمَدُوا جَمِيعُهُمْ مِنْهُ فِي نَهْرِ الأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُم" (مرقس1:5). فلم تستثن الإنجيل أحداً، فالمعمودية هى لكل الناس والأجناس، للرجال والنساء والأطفال والعشارين والجنود. فمعمودية الشعب كله كانت تهيئةً لقبول المسيح.

كان اليهود يعمدون لكى يظهروا أمراً أكبر من مجرد عضويتهم فى شعب إسرائيل القديم. فقد كان مطلوباً أن يظهروا رغبتهم فى الأشتراك فى مملكة المسيا، هذا الأمر الجديد كان هو بعينه الولاء الشخصى للمسيا، ولذلك كانوا يعتمدون كعبيد فى خدمة المسيا الآتى. على ذلك كان يلزم أن يعمدهم مرسل من قبل الله، لا أن يعمدوا هم أنفسهم بأنفسهم.

بين معمودية يوحنا ومعمودية موسى النبى

عن معمودية يوحنا، والفرق بينها وبين معمودية موسى، يقول القديس باسيليوس الكبير (330-379م): "إن معمودية يوحنا كانت أسمى من معمودية موسى من عدة أوجه، فقد كانت لا تميز إطلاقاً بين أنواع الخطايا، فلم تتطلب لتتميمها ذبائح متنوعة، ولم تكن تراعى التدقيق فى

الجانب الطقسى لتتميمها، ولم تهتم بأيام معينة دون غيرها، فبدون التقيد بأى شكل يعيق نعمة الله ومسيحه، كانت تهب فى الحال غفران الخطايا لأى شخص يتقدم معترفاً بخطاياه مهما كانت ثقيلة وكثيرة، عندما يتعمد فى نهر الأردن"[1].

كما يوضح القديس باسيليوس فى حديثه عن المعمودية، أن غفران الخطايا لا يكون إلا بدم المسيح نفسه فيقول: "هوذا قطعة الحديد إن غطسناها فى النار المتوهجة بفعل الريح، فإنه يسهل جداً فصل الشوائب العالقة بها، فتتنقى بغاية السهولة، وتتحول من حالة الصلابة إلى والمقاومة إلى حالة أكثر ليونة، فتصير بذلك مؤهلة لتشكيلها بيد الصانع وفقاً لرغبة صاحبها. وتتحول من اللون الأسود إلى لون أحمر أكثر لمعاناً مع بريق، بل وأيضاً تضئ وتنتقل حرارتها من الوسط المحيط بها. كذلك عندما يغطس الإنسان فى معمودية النار، أى الكلمة المربية التى تفضح خبث الخطايا وتكشف نعمة الأعمال البارة ... فيتطهر المرء بالإيمان فى قوة دم ربنا يسوع المسيح. فالرب نفسه قال: "لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (متى26:28)، والرسول يشهد بقوله "الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ بِدَمِهِ، غُفْرَانُ الْخَطَايَا" (أف1:7)، وهو لا يختص فقط بتطهير كل إثم وخطيه، بل أيضاً يطهر من كل دنس الجسد والروح "فَإِذْ لَنَا هذِهِ الْمَوَاعِيدُ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ لِنُطَهِّرْ ذَوَاتِنَا مِنْ كُلِّ دَنَسِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، مُكَمِّلِينَ الْقَدَاسَةَ فِي خَوْفِ اللهِ" (2كورنيثوس7:1)[2].

كما يقول عنها فى موضع آخر: "... من هذا نعرف الفرق بين الروح القدس ومعمودية الماء، لأن الرب عمد بالروح القدس، أما معمودية يوحنا فكانت بالماء فقط، وحقاً قال يوحنا: "أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ" (متى3:11)، وهو هنا يعنى نار الفحص فى يوم الدينونة،

[1] القديس باسيليوس الكبير: فى سر المعمودية، فصل 1:2,5

[2] المرجع السابق، فصل1:2,10

لأن الرسول قال: "فَعَمَلُ كُلِّ وَاحِدٍ سَيَصِيرُ ظَاهِرًا لأَنَّ الْيَوْمَ سَيُبَيِّنُهُ. لأَنَّهُ بِنَارٍ يُسْتَعْلَنُ، وَسَتَمْتَحِنُ النَّارُ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا هُوَ" (1كو3:13)[1].

معمودية يوحنا لا يمكن أن تهب غفران الخطايا، فالقديس يوحنا ذهبى الفم يوضح ذلك جيداً فيقول: "لأنه لم تكن الذبيحة قدمت بعد، ولا انحدر الروح القدس، ولا انحلت الخطية، ولا ارتفعت العداوة، ولا محيت اللعنة، فكيف أزمع الغفران أن يكون"[2].

أما القديس أغريغوريوس اللاهوتى (329–389) فهو يوضح بتدقيق أكثر الفرق بين معمودية اليهود، ومعمودية يوحنا، ومعمودية المسيح فيقول: "يوحنا عمد، ولم تكن معموديتة يهودية محضة، لأنه لم يعمد بالماء فقط بل للتوبة أيضاً. غير أن معموديتة لم تكن روحية كلها، لأنه لم يضف لفظة (بالروح). ويسوع أيضاً عمد ولكن بالروح، وهذا هو الكمال"[3].

معمودية يوحنا المعمدان كانت خطوة تمهيدية:

لم يتحدث القديس يوحنا المعمدان عن معموديته كهدف، إنما كخطوة تؤهل الإنسان لمعمودية أخرى أعظم منها، فإن كانت هذه المعمودية للتوبة لمغفرة الخطايا (مر1:4، لو3:3) استعداداً لقبول المسيا، إلا أنها لم تمنح المعتمد الإنسان الجديد الذى لا يولد إلا فى المسيح بالروح القدس. لذلك قال بولس الرسول لتلاميذ لأفسس عندما سألهم: "هَلْ قَبِلْتُمُ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمَّا آمَنْتُمْ؟» قَالُوا لَهُ:«وَلاَ سَمِعْنَا أَنَّهُ يُوجَدُ الرُّوحُ الْقُدُسُ». فَقَالَ لَهُمْ:«فَبِمَاذَا اعْتَمَدْتُمْ؟» فَقَالُوا:«بِمَعْمُودِيَّةِ يُوحَنَّا». فَقَالَ بُولُسُ:«إِنَّ يُوحَنَّا عَمَّدَ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ، قَائِلاً لِلشَّعْبِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالَّذِي يَأْتِي بَعْدَهُ، أَيْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ». فَلَمَّا سَمِعُوا اعْتَمَدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ.[6] وَلَمَّا وَضَعَ بُولُسُ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْهِمْ ..." (أع19: 1–16). ويوضح القديس يوحنا ذهبى الفم (347–407م) ذلك الأمر فيقول: "كانت معمودية يوحنا أرفع شأناً من معمودية اليهود،

---

[1] القديس باسيليوس الكبير: فى الروح القدس 15: 36

[2] القديس يوحنا ذهبى الفم: تفسيرة لإنجيل القديس متى (مقالة 10).

[3] القديس أغريغوريوس اللاهوتى: عظة 39 فى عيد الظهور الإلهى

وأقل قدراً من معموديتنا. فهى كالجسد المتوسط إذ تتميز عن معمودية اليهود بكونها لم تقود الناس إلى طهارة الأجساد، إنما كانت تحثهم على تغير عوائدهم، وأن يتركوا الرذائل ويتحلوا بالفضائل، فيكون لهم رجاء الخلاص إذا هم عملوا صالحاً، وليس كالمعموديات المختلفة وباقى المياة المطهرة. لأن يوحنا لم يأمرهم بغسل ثيابهم وأجسادهم للتطهير بل كان يأمرهم قائلاً: "اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة" (مت3:8)[1]. فقد كان الاعتراف بالخطايا، حسب التقليد اليهودى، لا يعنى تعداد كل الخطايا المقترفة، بل إقرار الإنسان بأنه خاطئ.

4.معمودية التلاميذ:

ليس هناك فرق بين معمودية يوحنا المعمدان والمعمودية التى أجراها التلاميذ قبل الصليب والقيامة، لأن هذه الأخيرة أيضاً كانت للتوبة والاستعداد. فالمعمودية لا يكتمل فعلها إلا بموت المسيح وقيامته، ولا تنتقل إلينا إلا بالروح القدس الذى يقدر أن ينقل إلينا موت المسيح وحياته وقيامته. وهذا يوضحه العلامه ترتليان (160–225م) بقوله: "تلاميذ المسيح عمدوا كخدام، ويوحنا كذلك عمد كسابق، فتكون معمودية التلاميذ هى معمودية يوحنا نفسها ى معمودية أخرى، إذ لم توجد ولا ستوجد معمودية أخرى سوى المؤسسة من يسوع المسيح، وهذا المعمودية لم يكن ممكناً أن تتم وقتئذ من التلاميذ، لأنه فى ذلك الوقت لم يكن مجد الرب قد اتضح تماماً، وفاعلية الحميم لم تكن بعد قد تأيدت بالآمه وقيامته"[2].

كما يؤكد على ذلك القديس يوحنا ذهبى الفم (347–407م)، فيذكر أن كلا المعموديتين كانتا عديمتى الروح، فيقول: (لأى سبب قال إنه لم يكن يعمد؟ لأن يوحنا سق فقال "هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ" (متى3:11)، ولم يكن الروح قد أعطى بعد، إذا لم يكن (يسوع) يعمد. أما التلاميذ فكانوا يعمدون قاصدين أن يقدموا كثيرين للتعليم الخلاصى. وإن سأل أحد بماذا كانت تمتاز معمودية التلاميذ عن معمودية يوحنا؟ نقول له: لم تكن تمتاز بشئ لأن المعموديتين

---

[1] القديس يوحنا ذهبى الفم: العظة 15 على السرائر المقدسة.

[2] العلامه ترتليان: فى المعمودية، فصل 11.

كلتيهما كانتا منعدمتى نعمه الروح، وكلتاهما غاية واحدة فى التعميد، وهى تقديم المعتمدين إلى المسيح. ولهذا فالمعمودية اليهودية تبطل، وأما معموديتنا اليهودية فتأخذ ابتداء. وهنا أيضاً إذ تمم (الرب) المعمودية اليهودية فتح حالاً أبواب معمودية الكنيسة، وكما فعل فى ذلك الوقت على مائدة واحدة، هكذا الآن فى نهر واحد رسم الظل ووضع الحقيقة، لأن هذه المعمودية وحدها لها نعمة الروح، وأما معمودية يوحنا فكانت عادمة هذه الموهبة، ولهذا السبب لم يحدث على سائر المعتمدين شئ من ذلك، ولا نالوا الروح القدس، أما عليه فقد انحدر الروح الذى هو مزمع أن يعطيه، لكى تتعلم مما سبق ذكره، أن هذا لم تفعله نقاوة المعمد، بل قدرة المعتمد، ومن ثم انفتحت السموات وقتئذ، وانحدار الروح"[1].

5. معمودية ربنا فى مياه الأردن

هى المعمودية التى صارت أساساً لمعمودية العهد الجديد، وبالتالى فقد أبطلت كل المعموديات التى سبقتها، والرموز التى أشارت إليها، لأنه حيث يتحقق المرموز إليه يبطل الرمز.

فعندما جاء الرب إلى الأردن وأخذ مكانه بين طالبى معمودية يوحنا المعمدان، جاء نائباً عن كل البشر، واضعاً نفسه وحاسباً إياها بين الخطاة، لأنه يعلم أن هذه هى مشيئة الآب لكى يتحقق البر للكثيرين. فلم يعتمد المسيح لنفسه بل لأجلنا. وفى ذلك يقول الإنجيل المقدس: "إذ خرج الرب من الماء بعد أن تعمد، سمع صوت الآب يعلن عن ابنه: "هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مت3:17)، وهى تحقيق مباشر لنبوة إشعياء النبى "هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ" (1:42)، حيث أعلن هذا الصوت أن هذا هو المسيا الذى يعمد بالروح القدس ونار، وفى هذا يشهد يوحنا المعمدان نفسه قائلاً: "وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي:

[1] القديس يوحنا ذهبى الفم: تفسيرة لإنجيل القديس متى، مقالة على (مت 12: 4).

الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، فَهذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ" (يو 1:33،34).

لقد كانت المعمودية بالنسبة للمسيح، هى بداية رسالته المسيانية التى أبتدأها عندما حمل فى نفسه خطايا العالم كله ليمنحه التبرير، وكان عليه أن يصير هو بذاته "**العبد المتألم**" الذى يحمل خطايا الكثيرين بموته الذى بدأه فى المعمودية وأكمله بالصليب. فالرب قد تكلم عن موته كصبغة ومعمودية، كى تصبح معموديته متصلة وواحدة، بدءاً من عماده فى الأردن، وانتهاءً بموته على الصليب عند الجلجثة: "وَلِي صِبْغَةٌ (معمودية) أَصْطَبِغُهَا، وَكَيْفَ أَنْحَصِرُ حَتَّى تُكْمَلَ؟" (لو 12:50). ثم كانت القيامة من الموت لتختم على فعل الخلاص الذى تم بالصليب. لقد صار الصليب للرب هو كمال معموديته فى الأردن، والعمل الخلاصى الذى تممه، ليشفى به البشرية التى سقطت من حضن الآب عندما أغوتها الحية القديمة وفصلت عن الحياة.

6. معمودية الماء والروح

معمودية الماء والروح هى المعمودية التى يرتكز الحديث عنها فى هذا الكتاب. ولكونها معمودية لا تكتمل إلا بالماء والروح معاً، وليس بأيهما فقط، مدعمة بأقوال الآباء فى ذلك، أولاً من حيث ضرورة الماء للمعمودية، وثانياً من حيث عمل الروح القدس فيها كما يتحدث عنه فصول هذا الكتاب.

7. معمودية الدم أو الشهادة

تؤمن الكنيسة بمعمودية الشهادة بالدم، وتعتبرها معمودية فوق العادة. ومعمودية الدم والشهادة. يُقصد بها تاريخياً ما كان يحدث فى أيام الإضطهاد، حيث كان يؤمن أحد الوثنين نتيجة رؤيته لأحد الشهداء المسيحيين، فيُعذب ويعلن إيمانه بالمسيح، ونتيجة لذلك يتم القبض عليه وتقطع رأسه. فالذين يقدمون أنفسهم للشهادة على اسم المسيح قبل أن يتقبلوا معمودية الماء والروح، تسمى معموديتهم، معمودية الدم. وذلك بناء على قول الرب نفسه: "فَكُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي قُدَّامَ

النَّاسِ أَعْتَرِفُ أَنَا أَيْضاً بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت10: 32). وقول الرب أيضاً: "فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا" (مت16: 25). كذلك قوله الإلهى: "طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت5: 10). وبهذا النوع من المعمودية اعتمد كثير من الشهداء الذين سفكوا دمهم لأجل المسيح. وفى ذلك **يقول القديس كبريانوس** (210–258): "لا يجهل أحد أن الموعوظين بعد استشهادهم لا يكونون غير معمدين، لأنهم اصطبغوا أعظم صبغة وأشرفها، أى صبغة الدم التى تكلم عنها المخلص. والرب يؤكد أيضاً أن المعتمدين بدمهم والمقدسين بالتعذيبات يضحون كاملين ويأخذون نعمة الموعد الإلهى".

كما يقول **القديس كيرلس الأورشليمى:** "من لا يقبل المعمودية فلا خلاص له. ماعدا الشهداء وحدهم الذين بدون الماء ينالون الخلاص. لأن المخلص لما كان يفتدى العالم كله بالصلب نخس فى جنبه فخرج منه دم وماء، ليعتمد البعض بالماء فى أوقات السلام، والبعض الآخر بدمهم فى أوقات الاضطهادات. أن المخلص نفسه دعا الشهادة صبغة بقوله: "هل تستطيعان أن تشربا الكأس التى أشربها أنا وأن تصبغا بالصبغة التى أصطبغ بها"[1].

ويقول أيضاً **القديس باسيليوس:** "إن بعضاً نالوا الموت بالجهاد الذى عن حسن العبادة لأجل المسيح حقيقة لا اقتداء، ولم يحتاجوا إلى شيء من الرسوم التى من الماء لخلاصهم، لأنهم تعمدوا بدمهم"[2].

قال **القديس غريغوريوس الثاولوغوس:** "إننى أعرف معمودية أخرى أيضاً وهى معمودية الشهادة والدم، المعمودية التى تعمدها مخلصنا نفسه. هذه المعمودية هى أكثر مجداً من غيرها"[3].

---

[1] القديس كيرلس الأورشليمى: عظة 3: 8.

2 القديس باسيليوس الكبير: فى الروح القدس 15

3 القديس غريغوريوس الثاولوغوس: خطاب فى عيد الظهور

كما يقول **القديس أغسطينوس** عن أطفال بيت لحم: "الطوبى لكم لأنكم بعد الولادة وقبل المحاربة قد تكللتم بالظفر، وانى لا أرتاب فى أن استشهادكم قد استحق لكم إكليل عدم الموت كما لا أرتاب فى أن المعمودية مفيدة للأطفال".

الفرق بين معمودية السيد المسيح ومعمودية يوحنا المعمدان

1.معمودية يوحنا المعمدان كانت بالماء فقط لأجل التوبة، معمودية السيد المسيح كانت بالروح القدس، والماء للتوبة ولمحو الخطايا الجدية والشخصية.

2.لم يطلب يوحنا المعمدان من المُعمَّدين قبول تعليم الثالوث الأقدس، معمودية المسيح كانت تتم باسم الثالوث الاقدس.

3.لم يتبع معمودية يوحنا المعمدان حلول الروح القدس، معمودية السيد المسيح تتم بالماء والروح القدس.

4.معمودية يوحنا المعمدان تمهيدية لمعمودية للسيد المسيح.

5.معمودية السيد المسيح أبطلت معمودية يوحنا المعمدان لأن الأخيرة كانت رمزاً لها.

6.معمودية يوحنا المعمدان محصوره فى اليهودية فقط ومعمودية السيد المسيح ليس لها حدود فهى للعالم أجمع ولجميع الأمم.

7.معمودية يوحنا المعمدان رمزية للتوبة والإيمان بالسيد المسيح الآتى، والإيمان بمعمودية أخرى هى معمودية السيد المسيح الذى أتى لغفران الخطايا.

8.معمودية يوحنا المعمدان وقتية حيث أن المعتمدين فيها أعيد اعتمادهم مرة أخرى بمعمودية المسيح بعد إيمانهم به، معمودية السيد المسيح دائمة وحيدة إلى انقضاء الدهر.

بخصوص معمودية الهراطقة

يحتل موضوع معمودية الهراطقة، موضوعين رئيسيين، **الأول:** هو قضية الذين ينالون سر المعمودية من أشخاص هراطقة. **والثانى:** هو قضية معمودية الذين يعتمدون من أجل الأموات.

أولاً: قضية الذين ينالون سر المعمودية من أشخاص هراطقة

فى مدينة قرطاجنة عقد ثلاثة مجامع كنسية للنظر فى إعادة معمودية الهراطقة[1]. ويعتبر مجمع قرطاجنة المكانى أقدم المجامع الكنسية عموماً، وقد عُقد برئاسة القديس كبريانوس الشهيد 258م، أسقف قرطاجنة، للنظر فى مسألة معمودية المرتدين إلى الكنيسة من المبتدعين أو من المنشقين عليها.

فالمجمع الأول: اجتمع سنة 255م، وحدد أنه لا يمكن لإنسان أن يُعمَّد خارج الكنيسة، لأن الكنيسة لا تعترف إلاَّ بمعمودية واحدة. والمرتدون إلى الكنيسة الجامعة من المبتدعين يجب أن يُعمَّدوا ثانية. وإن كان البعض قد انضموا إلى المبتدعين بعد معمودية أرثوذكسية، فيجب قبولهم عند ارتدادهم دون معمودية خلافاً لتعليم نواطس، بل يُكتفى بالصلاة ووضع اليد عليهم. (المجمع الأول، القانون الثامن).

أما المجمع الثانى: إلتأم سنة 258م، وحضره 71 أسقفاً، وقد دعا إليه القديس كبريانوس الشهيد ليثّبت الشريعة التى وضعها المجمع السابق بشأن إعادة المعمودية. فحدد ما يلى:

- كل الإكليريكيين الذين كانوا فى الكنيسة وهجروا الإيمان يُقبلون عند ارتدادهم كالعلمانيين.

[1] كان قد عُقد فى مدينة قرطاجنة فى شمال أفريقيا مجامع كثيرة، وكانت الثلاثة مجامع الأولى منها للنظر فى مسألة إعادة المعمودية.

• كل معمودية قام بها المبتدعون باطلة، وكل من يرتد بعد معمودية كهذه، يجب أن يُعمد معمودية أرثوذكسية، ولا يعنى ذلك عماده ثانية بل هى المعمودية الواحدة، إذا لم يسبق لهم أن نالوا المعمودية الحقيقة.

وأرسل المجمع رسالة إلى إسطفانوس أسقف روما (254–257م)، ليشرح له فيها ما تحدد بخصوص إعادة المعمودية.

المجمع الثالث: عُقد فى السنة نفسها، أى سنة 258م، برئاسة القديس كبريانوس، حضره 84 أسقفاً، وذلك بعد تلقّى رد الأسقف إسطفانوس على الرسالة التى أرسلها إليه المجمع الثانى السابق ذكره. فلقد عقد الأسقف إسطفانوس مجمعاً فى روما وحدد فيه: أن معمودية المبتدعين الذين يعمَّدون كما تعمَّد الكنيسة، لا يجوز إعادتها. وهدد أساقفة أفريقيا بالطرد من شركة الكنيسة إذا استمروا فى تنفيذ هذه الممارسة. ولقد وصلت كنائس الغرب إلى حد أنها كانت تقبل الأشخاص الذين اعتمدوا بمعمودية الهراطقة بمجرد وضع الأيدى عليهم.

مثل هذا الخلاف كان قد نشب أيضاً بين الأسقف إسطفانوس وأساقفة آسيا، فقد كتب إليهم أسقف روما ألاَّ يعيدوا معمودية المبتدعين، طالما تمت بحسب طقس الكنيسة الجامعة. فعقد أساقفة آسيا مجمعاً فى إيقونية سنة 258م، برئاسة القديس فرمليانوس أسقف قيصرية الجديدة. وحضره آباء من كبادوكية، وكليكية، وغلاطية، وغيرها من الإيبارشيات الشرقية، ورأوا عدم قبول شىء من الأسرار التى يقوم بها المبتدعون لأنها باطلة، بما فيها معموديتهم وسيامتهم.

أما **رسالة القديس كبريانوس التى كتبها فى المجمع الثالث**، وهى بمثابة قانون له، فقد جاء فيها: "... إننا نرى ونعتقد متيقنين أنه لا يمكن لأحد أن يُعمد خارج الكنيسة، بمعنى أنه ليس هناك إلاَّ معمودية واحدة فى الكنيسة المقدسة. وقد جاء فى الكتاب المقدس قول الرب نفسه: "تَرَكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ لِيَنْقُرُوا لأَنْفُسِهِمْ آبَاراً آبَاراً مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَاءً" (إر2: 13). فالماء إذاً يجب أن يُنقى ويُقدَّس بواسطة الكاهن لُتغسل فيه، بالمعمودية، خطايا المستنير، تصديقاً لقول الرب بفم حزقيال النبى: "وَأَرُشُّ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِراً فَتُطَهَّرُونَ. مِنْ كُلِّ نَجَاسَتِكُمْ

وَمِنْ كُلِّ أَصْنَامِكُمْ أُطَهِّرُكُمْ. وَأُعْطِيكُمْ قَلْباً جَدِيداً، وَأَجْعَلُ رُوحاً جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ" (حز36: 25–26). ولكن كيف يستطيع من هو نفسه غير طاهر أن يُطهّر ويقدّس الماء، وهو خال من الروح القدس؟ ولذلك يقول الرب فى سفر العدد: "وَكُلُّ مَا مَسَّهُ النَّجِسُ يَتَنَجَّسُ وَالنَّفْسُ التِي تَمَسُّ تَكُونُ نَجِسَةً إِلى المَسَاءِ" (عد19: 22). وكيف يستطيع من لا يقدر أن يحرر نفسه من خطاياه، وهو خارج الكنيسة أن يمنح آخر فى تعميده غفران خطاياه؟!"... بل إن الأسئلة التى تُطرح على المتقدم للاستنارة تشهد بالحقيقة. فعندما نسأله: أتؤمن بالحياة الأبدية ومغفرة الخطايا بواسطة الكنيسة المقدسة؟، نعنى أن مغفرة الخطايا لا تُمنح إلا فى الكنيسة. ولما لم يكن للمبتدعين كنيسة، فيستحيل عليهم مغفرة الخطايا ... ثم أنه لابد للمُعمَّد أن يُمسح للرب بمنحة مسحة الميرون المقدس، وحصوله فى داخله على نعمة المسيح، أما الذى ليس له كنيسة ولا مذبح، فلا يستطيع أن يقدّس الزيت ... وما هو نوع الصلاة التى يقدمها كاهن رجس خاطئ فى المعمودية؟ وقد كُتب: "نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ فَلِهَذَا يَسْمَعُ" (يو9: 31). ومن يستطيع أن يعطى ما ليس عنده؟ أو كيف يقدر أن يقوم بالأعمال الروحية من قد حُرم هو نفسه من الروح القدس؟... وهكذا فكل من خُدع وحُمل على السير فى طريق الضلال، واغتسل خارجاً يجب أن يخلع عنه أيضاً بالمعمودية الحقيقة فى الكنيسة ... إلخ".

بعد هذا الشد والجذب بين الشرق والغرب، وضع الموت خاتمة مؤقتة لهذا المشهد، إذ انتقل إسطفانوس الأول أسقف روما سنة 257م، وبعده بسنة واحدة استشهد القديس كبريانوس. وسرعان ما انتعش النزاع من جديد مع بداية القرن الرابع الميلادى، بواسطة الدوناتيين Donatists أتباع دوناتس المبتدع، والذى زعم بصلاحية المعمودية إذا مُنحت بواسطة هرطوقى، أو حتى خادم كنسى غير مستحق. أما مجمع آرلس Arles الذى عُقد سنة 314م، فقد عدَّل فقط هذه النظرة، موضحاً أن معمودية الهراطقة تصبح شرعية إذا مُنحت باسم الثالوث، وهو التعليم الذى انتشر فى الغرب على نطاق واسع تحت تأثير تعليم القديس

أغسطينوس الذى قرر اعتماد قانونية السر بوجوب شكله الصحيح الذى وضعه السيد المسيح، بغض النظر عن إيمان أو أهلية خادم السر.

فى هذا الخضم من الارتباك، عُقد مجمع نيقية المسكونى الأول سنة 325م، وقرر فى قانونه التاسع عشر أن معمودية الهراطقة يجب أن تعاد، معززاً قانون مجمع قرطاجنة بخصوص لزوم إعادة معمودية الهراطقة، فيقول: "إننا نحدد أن أتباع بولس السموساطى الذين لجأوا إلى الكنيسة الجامعة يجب أن تعاد معموديتهم على حال ... إلخ".

أما مجمع اللاذقية الذى عُقد سنة 314م، فقد أكدّ فى قانونه الثامن على وجوب إعادة معمودية المونتانيين أتباع مونتانوس، وأن يقوم بتعميدهم أساقفة الكنيسة وقسوسها. وهكذا أيضاً قرر المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية سنة 381م، فى قانونه السابع رفض معموديتهم.

رغم كل ذلك ظلت مشكلة الاعتراف بصحة معمودية المونتانيين من عدمها زمناً طويلاً فى الكنيسة، وكان تردد الكنيسة فى هذا الأمر آنئذ يعود إلى أسباب عديدة – شهد القديس إبيفانيوس (315–404)– قائلاً: "إن تعليمهم فيما يختص بالآب والابن والروح القدس هو تعليم الكنيسة الجامعة". كذلك يقول البابا ديونيسيوس الكبير (248– 265م): بصحة معموديتهم.

أما بعض آباء الكنيسة الآخرين فقد نظروا إلى المونتانيين نظرة شك وريبة، لأن إعرابهم عن إيمانهم يكتنفه شىء من الغموض. فهم يدعون زعيمهم مونتانوس بأنه الروح القدس. لذلك انتقدهم ترتليانوس، وباسيليوس الكبير (330–379م) وكيرلس الأورشليمى (315–386م) معتبرين معموديتهم باطلة. فيرى القديس باسيليوس أن المونتانيين يعمَّدون باسم الآب والابن ومونتانوس. فهم وإن لم يغّيروا شيئاً من رسم المعمودية إلاَّ أن تعبيراتهم الغامضة عن مونتانوس والروح القدس كافية للقول بأن الأفضل أن تعتبر معموديتهم باطلة. بالإضافة إلى أن عدداً وافراً منهم قد سقط فى هرطقة سابيليوس، وعلى ذلك تُعتبر معموديتهم باطلة حتماً.

كما أن مجمع قرطاجنة الذى عُقد سنة 419م، وحضره 217 أسقفاً، فى زمن الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير (401–450م) والمعروف قوانينه باسم "قوانين الكنيسة الأفريقية"، كان قد عُقد لإصدار الحكم ضد بعض المبتدعين أمثال بيلاجيوس وكليستيوس تلميذه، ودوناتس... إلخ، وأورد هذا المجمع عن الدوناتيين القوانين (47، 68، 69) ويظهر منها زيادة إنتشار هذه الشيعة فى أفريقيا، وامتداد نفوذها، مما استوجب من الكنيسة الجامعة معاملتهم بما يضمن سلام الكنيسة وهدوئها.

- **ففى القانون (47)**، يستشير المجمع بعض الأساقفة فيما يختص بالأطفال الذين عمدهم الدوناتيين، لأنهم لم يفعلوا ذلك باختيارهم، بل لضلال والديهم، فهل يمنعهم ذلك عند ارتدادهم للكنيسة عن التقدم لخدمة المذبح؟.
- **فى القانون (68)** سمح المجمع للدوناتيين من الإكليريكيين، أى من الأساقفة والقسوس وغيرهم، إذا ارادوا الرجوع إلى الكنيسة الجامعة، ألا يُمنع قبولهم بحسب رتبهم، إذ يحسن أن الجميع يخلصون وأن يستتب السلام فى الكنيسة ويزدهر.

ويقول أريستينوس معقباً على هذا القانون: "إن الدوناتيين الذين تابوا ولعنوا بدعتهم، يُسمح لهم بأن يبقوا فى رتبهم الإكليريكية، ذلك لأن الكنيسة الجامعة فى أفريقيا كانت تعانى من نقص شديد فى عدد الإكليريكيين. وهو ما رآه أيضاً جونسون الذى أضاف بأن كل أسقف فى إيبارشيته، وبحسب نص القانون، قد تُركت له حرية قبول الإكليريكيين من الدوناتيين إن شاء قبولهم.

- **فالقانون (69)** استحسن أن تُرسل وفود تبشّر وتعلم الدوناتيين من أساقفة وشعب، لوعظهم ودعوتهم إلى السلام والوحدة، وإيمان الكنيسة.

هكذا ظل موضوع معمودية الهراطقة يقلق الكنيسة حتى القرن السابع الميلادى، عندما عُقد مجمع ترولو سنة 692م، ولّخص فى قانونه الخامس والتسعين كل القوانين السابقة للمجامع التى سبقته بخصوص هذا الأمر، وكيفية قبول المرتدين من المبتدعين إلى الإيمان. وبرغم أن

الكنائس الشرقية القديمة، لا تعترف بهذا المجمع، ولا بقوانينه، إلا أنه يعنينا فقط من الوجهة التاريخية. ويلخص المؤرخ الكاثوليكى هيفيليه القضية بقوله: الذى يلوح لى وأكاد أجزم به، أنه مهما كان الأمر، فعلماء اللاهوت والآباء الأقدمون كانوا يعتقدون أنه ولو أتّم المنشقون أو المبتدعون الطقس الخارجي للمعمودية المقدسة بصورة قانونية، فالشخص الذى يعمدونه، لم ينل نعمة الروح القدس. ولم يكن هذا الرأى منحصراً فى الشرق، بل كان شائعاً فى الغرب أيضاً.

جدير بالذكر أن مجمع قرطاجنة الذى عُقد سنة 419م، يذكر فى قانونه رقم (72) ما يلى: "قد استحسن المجمع أنه حيث لا يوجد شهود ثقة، يشهدون بأن الأطفال قد عُمدوا، وهؤلاء لصغر سنهم لا يدركون أن يعطوا جواباً عن أنفسهم، إن كانوا قد نالوا هذا السر، فيجب أن يُعمَّدا بدون تردد، لئلا يُحرموا لهذا السبب من نعمة التطهير والتقديس. وقد ألح بهذا الطلب إخوتنا الغائبون فى مراكش (المغرب) وجنوبى أسبانيا، لأنهم يحررون عدداً وافراً من الأطفال من بلاد البربر".

ثانيا: قضية الذين يعتمدون من أجل الأموات

قضية الذين ينالون سر المعمودية من أجل أشخاص ماتوا وانتقلوا من هذه الحياة، هى أحد المشكلات التى ظهرت فى أيام القديس بولس الرسول، واستمرت فى الكنيسة حوالى سبعة قرون أو يزيد قليلاً. وقد كتب الرسول بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس متسألاً: "وَإِلاَّ فَمَاذَا يَصْنَعُ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ مِنْ أَجْلِ الأَمْوَاتِ؟ إِنْ كَانَ الأَمْوَاتُ لاَ يَقُومُونَ الْبَتَّةَ فَلِمَاذَا يَعْتَمِدُونَ مِنْ أَجْلِ الأَمْوَاتِ؟" (1كو15: 29)، فهؤلاء الذين كانوا يعتمدون من أجل موتاهم كانوا يؤمنون بالقيامة، فكانوا يعتمدون من أجل الذين ماتوا ولم يعتمدوا لئلا يخسروا ميراث الحياة الأبدية.

هذه العادة الغريبة نسمع عنها أيضاً فى القرن الخامس فى مجمع قرطاجنة المكانى الذى عُقد هناك سنة 419م، وذلك فى القانونين (18،20). ففى القانون (18) يقول: "لا يجوز أن تعطى جثث الموتى سر المعمودية ..." وفى القانون (20) يقول: "... يجب ألاَّ يدفع القسوس جهلهم

إلى تعميد الأموات". ولكن الأكثر غرابة أن تسمع عن هذه الممارسة من حين لآخر حتى القرن السابع، إذ كانت لا تزال عادة التعميد من أجل الأموات سارية بين الناس، مما استلزم مجمع ترولو سنة 692م، أن يصدر قانوناً (القانون83) يحرّمها، معيداً التذكير بقوانين سبقت فى هذا الشأن.

كما أن المناداة بهذه المعمودية الغريبة، قد دفع كثيرين من مفسرى الأسفار المقدسة أن يقدموا شروحات متباينة فى ذلك. فالقديس يوحنا ذهبى الفم، وآخرون فهموا النص بالأسلوب الآتى: "فلماذا يعتمدون لجسد هو عرضة للموت". أما ثيؤدوريت (393–466م) ومعه آخرون أيضاً، فقد رأوا أن التعميد من أجل الأموات يعنى التعميد من أجل الأعمال الميته للخطية. كما ظهرت شروحات أخرى تفسّر النص على أنه معمودية أولئك الذين يعتمدون على فراش الموت فى مرضهم الأخير الذى يكونون فيه كالأموات ... إلخ.

كما إن القديس يوحنا ذهبى الفم (347–407م) فى عظته الحادية عشرة على الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، قدّم عن هذه المعمودية الغريبة تفصيلات أتمامها، فيقول: إنه عندما يموت واحد من أتباع ماركيان الهرطوقى، يضطجع واحد من الأحياء تحت سرير الميت، ثم يطلبون إلى جثة الميت إن كانت تستطيع أن تتقبل المعمودية، فيجيب الحىّ عن الميت بالإيجاب، ويقبل المعمودية فى مكانه بدلاً عن الميت. كما أنه فى زمن القديس أغسطينوس (354–430م) نجد أن معمودية الموتى كانت تمارس بواسطة بعض الجهّال من المؤمنين، مما استوجب أن يؤكد مجمع قرطاجنه الثالث، عن عدم شرعية معمودية الموتى، أو منحهم سر الإفخارستّيا.

فالنص الذى أورده القديس بولس يقبل فى هذا الخصوص تفسيراً طبيعياً جداً، لأن النص لا يقر أمراً بوجوب هذه الممارسة، لكنه يستخدم هذه الممارسة التى شاعت فى ذلك الزمان، كحجة وبرهان يؤكد ويثبت وجود قيامة للأموات، لأنه إن كان الموتى لا يقومون، فما هى جدوى قبول المعمودية لأجلهم، من أولئك الذين يمارسون هذه الممارسة الغريبة. فهذه الممارسة

إذاً قد استخدمها الرسول لصالح أولئك الذين يدافعون عن قيامة الموتى، لكنها من جهة أخرى توضح مقدار أهمية المعمودية وخطورتها فى ذهن الكنيسة، إذ بموجبها فقط للإنسان أن يقوم من الموت فى اليوم الأخير لنصيب فى الحياة الآتية، إصغاءً لقول الرب: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3: 5).

فى الحقيقة نقول أن إيمان الكنيسة الجامعة بأهمية معمودية الأطفال الصغار، عملت على سرعان تلاشى هذه المعمودية الغريبة، ليس من جهة ممارستها فقط، بل من ذهن المؤمنين، لأنهم صاروا يعمدون أولادهم منذ طفولتهم، فلم يعودوا يخشون موتهم قبل معموديتهم. كما ان إدراك المؤمنين وفهمهم لأهمية ممارسة ومعايشة العقيدة المسيحية، جعل وضع نهاية للأفكار الغريبة بشأن معمودية الهراطقة أو معمودية الموتى.

ليت كل إنسان يُدرك فعل المعمودية فى حياته، لنفهم قوتها الروحية التى صيرتنا مسيحيين!. ففى ذلك نذكر ما قاله الأب ألكسندر شميمان[1]: "إن المسيحيين الآن يبذلون المستحيل ليعمدوا أولادهم، (ليجعلوهم) مسيحيين، ولكن كم شخصاً بينهم يهتم حقاً بأن يفهم كيف تجعل المعمودية الإنسان مسيحياً؟! وماذا يحصل فعلاً فى المعمودية؟! ولماذا يحصل ما يحصل؟!".

[1] الأب ألكسندر شيمان

الفصل السابع

إتمام المعمودية فى القرون الأولى

من له حق التعميد

أن الرب يسوع قد جعل حق التعميد للرسل حيث قال لهم: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم إلخ" (مت28 :19، مر16 :16). وقد انتقل هذا الحق من الرسل إلى خلفائهم الأساقفة، ومن الأساقفة إلى القسوس. أى أن الذين لهم حق التعميد هم الأساقفة والقسوس لا غير مع خدمة الشماس. كما نصت القوانين الرسولية على: "أننا لا نسمح بحق التعميد لأحد من الإكليروسيين مثل القارئين، والمرتلين، والبوابين (الإيبذياكونيين) والخدمة، الا للأساقفة والقسوس وحدهم، الذين يخدم معهم الشمامسة (الدياكون)".

أثبت هذا الأمر آباء الكنيسة، فيقول القديس أغناطيوس الشهيد فى رسالته إلى أهل أزمير يقول: "لا يسمح لكم أن تعمدوا بدون أسقف ولا أن تقربوا قرابين ولا أن تقدموا ذبيحة".

كما يقول العلامة ترتليانوس: "إن السلطة فى تتميم المعمودية منوطة بالأسقف ثم بالقسوس مع الشمامسة. ولكن ليس بدون إذن من الأسقف لشرف الكنيسة".

كذلك القديس أبيفانيوس يؤكد: "أنه حسب النظام الكنسى لا يتمم الشمامسة سراً من الأسرار، ولكنهم يخدمون فى خدمة الاسرار ...". ويقول أيضاً: "لو كان التعميد مسموحاً به للنساء، لما تقبل ربنا يسوع المسيح المعمودية من يوحنا، بل من أمه الكلية القداسة"[1]

كما يحدد القديس إيريناؤس أسقف ليون (130–200م) فى كلامه ضد الهراطقة، من له حق التعميد قائلاً: "يجب الخضوع للكهنة الذين أُقيموا فى الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من

[1] القديس أبيفانيوس اسقف قبرص: ضد الهراطقة، ف (79)

الرسل، وأخذوا المواهب الحقيقة بمسرة الآب مع الخلافة الأسقفية. أما الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسولية، وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيثما اتفق. فيجب أن نحسبهم أناساً مشبوهين وهراطقة وأردياء وعصاة ومتعجرفين ومتكبرين ومرائين وأنهم لا يتعاطون ذلك إلا محبة فى المديح والمجد الفارغ"[1]

يذكر القمص صليب سوريال: "أنه جاء فى كتابات الآباء الأولين "أنه على العلمانيين ألا يترددوا فى إجراء العماد فى حالات الضرورة القصوى"... ويذكر مثالا على ذلك فى حالة عدم وجود كاهن أو شماس "دياكون" فى المنطقة والطفل على وشك الموت، فيضيف بقوله: "ولم يسمح للنساء بالتعميد إلا فيما ندر، وللضرورة القصوى، كأن تكون الأم وحدها مع طفلها وهو فى ساعة الموت، بأن تقوم بسكب (Affliction) أو رش (Aspersion) الماء على الطفل الذى ينازع الموت، وإذا ما أراد الله أن يعيش هذا الطفل لا يعمد، بل يمسح بالميرون فقط"[2].

كما يذكر العلامة ترتليانوس: "أنه فى الظروف الحرجة على والد الطفل – أو أمه – أن يقوم برشه بالماء ولا يصرح للشماس بذلك الأمر فى هذه الحالة، وربما كان الأصح هو قيام "الدياكون" بهذا العمل فى حضرة الوالدين متى كان موجوداً فى تلك الظروف بالبيت[3].

وقد سمح العلامة ترتليان (160– 225) للعلمانيين أن يعمدوا إن دعت الضرورة إلى ذلك، فيقول: "إنه يستلزم كقاعدة أن الأسقف أو الكاهن يجري المعمودية ... وفي حالات الضرورة يخول علمانياً ليجريها. ولكن إن اعتمد طفل للضرورة من علماني بغطسات ثلاث على اسم الثالوث القدوس، ثم شُفي ونجا من خطر الموت، فالقوانين الكنسية تأمر أن يتمم الكاهن كل طقس المعمودية لذلك الطفل المعمد، ما عدا الغطسات الثلاث، واستدعاء الروح القدس.

[1] القديس إيريناؤس أسقف ليون: ضد الهراطقة، كتاب 4: فصل 26.

[2] القمص صليب سوريال: مذكرات فى الطقوس الكنسية، ج3، الكلية الأكليركية للأقباط الأرثوذكس، ص12.

[3] المرجع السابق

واجبات المُعمدين

هناك واجبات ضرورية مطلوبة من المُعمدين، تتمثل فى الآتى:

1. الإيمان بالرب يسوع "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16)، "وَكَلَّمَاهُ وَجَمِيعَ مَنْ فِي بَيْتِهِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ" (أع16 :31).
2. الاعتراف بهذا الإيمان علناً وصريحاً.
3. التوبة حسب قول بطرس الرسول "توبوا تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (اع38:2)، "فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ لِكَيْ تَأْتِيَ أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ" (أع19:3).
4. بما أن الله أُظهر لكى ينقض أعمال إبليس (1يو3: 8). لذلك يجب على المعُمد قبل كل شىء ان يجحد الشيطان ويفض أعماله، ويتعهد بأن يترك كل أباطيل العالم ويكفر بأعمال الظلمة، لأنه رجع من ظلمات الجهل والشر والخطية إلى نور المعرفة والقداسة والبر، ومن سلطان الشيطان إلى الله (أع26:18). والمراد بجحد الشيطان ترك الخطية ورفض كل أعمال إبليس، وأتباع المسيح والسلوك بحسب تعليمه، وهذا التعليم موافق كل الموافقة لروح الكتاب الذى ينادى هكذا وما جاء فى سفر أعمال الرسل "وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَأْتُونَ مُقِرِّينَ وَمُخْبِرِينَ بِأَفْعَالِهِمْ" (أع19: 18).

والكنيسة تمارس هذا الأمر من عهد تأسيسها وذلك بشهادة العلامة ترتليانوس (في المعمودية20) والقديس أكليمنضس الإسكندرى (في الرسومات 5: 11) وكيرلس الأورشليمى (عظة 1: 35) والقديس يوحنا ذهبى الفم (فى مقالة على رسالة أفسس).

وقد ورد فى تاريخ موسهيم: "كان القسوس تحت أمره يعمدون مرتين في السنة، أى فى الفصح والأحد الجديد بعد الفصح. فمن جهة الطالبين يظن أنهم كانوا يغسلون بالماء كلياً مع الابتهال للثالوث الأقدس حسب أمر المخلص بعد أن يكونوا قد تلوا ما يسمونه قانون الإيمان ويرفضوا

كل خطاياهم ولاسيما الشيطان وجنوده، وكان يرسم الصليب على المعُمدين ويمسحونهم ويستودعونهم لله بالصلاة ووضع الأيادى وأخيراً يذيقونهم من اللبن والعسل ... كان على البالغين أن يروضوا عقولهم بالصلاة والصوم ورياضات أخر خشوعية. ووضع الشابين أولاً للبالغين ثم وضعوا للأطفال أيضاً (موسهيم كتاب قرن2 قسم2 فصل 4 عدد13).

وهذا الطقس لا يزال جاريا في جميع الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والشيع البروتستانتية، فقد جاء فى كتاب الصلاة العامة للكنيسة الأسقفية: "بما أن هذا الوعد قد حصل من المسيح فينبغى لهذا الطفل أن يعد بأمانة على يدكم (أى الأشابين) بالنيابة عن هذا ترفض الشيطان وجميع أفعاله وزخارف الدنيا ومجدها الباطل ... إلخ.

الإشبين أو الواصى ووظيفتة:

كلمة إشبين (Guardian) سريانية الأصل وتعني الحارس أو الوصى أو الكفيل. ويتم اختيار الإشبين للطفل من بين أحد الأقارب، أو أحد الشماسة، عندما لا يكون فى استطاعة الوالدين القيام بهذا التعليم للمعُمد. وهذا الأمر لم يكن ذلك قاصراً على الأطفال فقط، بل أيضاً على الموعوظين الكبار. فمنذ العصر الرسولى نجد هذا التعليم، فقد ورد فى سفر الأعمال أن الرب نفسه عهد إلى حنانيا تعليم شاول وإرشاده قبل عماده (أع9) وبعد ذلك مكث فى دمشق عند حنانيا مع التلاميذ أياماً (أع9: 28). كذلك عهد إلى بطرس الرسول كرنيليوس القائد المائة الرومانى، ليعلمه قواعد الإيمان المسيحى، وإرشاده إلى طريق الحياة الأبدية بالمسيح يسوع (أع10).

والإشبين هو المسئول الروحى أمام الكنيسة عن تربية الطفل المعُمد تربية روحية، حتى يكبر وينمو فى الفضيلة. وفى بعض الكنائس مثل الروم الأرثوذكس يكون فيها الإشبين عن المعُمد، مسئول عنه حتى أمام المحاكم، وإذا كان الإشبين لفتاة كان رجلاً، فلا يحق له الزواج منها.

وتشترط الكنيسة فى الإشبين أن يعرف الإيمان جيداً، وأن يكون قبطياً أرثوذكسياً، خائفاً لله، متحل بالفضائل والحكمة والعقل، وأن يكون ملازماً للطفل فى تربيته.

وقد شرح الآباء مفهوم الإشبين وعمله، ففى شرح معنى كلمة إشبين يقول القديس يوحنا ذهبى الفم، للذين يتولون هذه المهمة حيث يقول لهم: "أرغب فى أن أوجه كلمة إلى كل أشبين ليعرفوا أية مكافأة يستحقون إن أظهروا عناية فائقة بمن اؤتمنوا عليهم، وأية إدانة ستلحق بهم إذا تهاونوا. فكروا جيداً أيها الأحباء في أولئك الذين يكفلون شخصاً فى مسألة مالية، كيف يكونون مسئولين عن كفالتهم قانونياً، فإذا كان المدين خير الطبع فإنه يخفف الحمل عن كفيله، أما إذا كان سيئ الطبع، فإنه يعرضه للخطر. ولذا ينصحنا الحكيم قائلاً: "من يجعل نفسه ضامناً فليفكر وكأنه سيدفعها" (سي8 :13). فإذا كان الذين يكفلون غيرهم فيما يخص المال يجعلون أنفسهم عُرضة لدفع قيمة الضمانة كلها، فإن الذين يكفلون غيرهم فيما يخص الروح وما يتعلق بالفضيلة، يجب أن يكونوا أكثر تيقظاً، وعليهم أن يظهروا محبتهم الأبوية بتشجيع أولئك الذين يكفلونهم".

كما يقول أيضاً: "لذا درجت العادة أن تسمى الإشبين أباً روحياً حتى يعلموا جميعاً أى تحنن عظيم يجب أن يظهروه نحو الذين يتكفلون بتعليمهم الأمور الروحية ـ فإذا كان من النبل أن نقود إلى حتمسة الفضيلة أولئك الذين لا يمتون إلينا بأية صلة فبأى مقدار يجب أن نتمم هذه الوصية نحو من يكون ابنا روحياً لنا ـ فاعلموا إذاً أيها الأشابين أن خطراً عظيماً ينتظركم إذا تهاونتم فى رسالتكم".

كانت الكنيسة تلاحظ الذين يعتمدون وتراقبهم بكل حذر وتتلمذهم أولا زمناً تحت التعليم. ولما كان الأطفال لا يدركون ماهية الإيمان، ولا يستطيعون إعلان إيمانهم، ولا يمكن أيضاً تلمذتهم، فلذلك رأت الكنيسة تعهد أشابينهم، الذين يتكلفون بتربيتهم التربية المسيحية وتعليمهم حقائق الإيمان، ويتعهدون بذلك أمام الكنيسة.

خلال ممارسة طقس المعمودية للموعوظين يتم جحد الشيطان حيث يتجه المرشح للعماد نحو الغرب (رمز الظلمة) ويعلن رفضه لإبليس وأعماله وعبادته، ثم يتجه نحو الشرق (رمز النور والحياة) ويتلو قانون الإيمان ثم يخلع ملابسه ويدهن بالزيت (Exocrism) ثم ينزل لجرن المعمودية ويعلن إيمانه بالمسيح ثم يغطس القس رأسه فى الماء ثلاث مرات تالياً له صيغة العماد. كما أن الأطفال يعُمدون على إيمان والديهم، أو الأشابين. الذين يتعهدون أمام الكنيسة بتعليمهم مبادىء الإيمان.

عن هذه العاده يقول القديس ديوناسيوس الأريوباغى تلميذ القديس بولس الرسول: "أن هذا الأمر أفتكر به (أى فكرو فيه) معلمونا الرسل ورأوه موافقاً أن يقبل الأطفال على هذا الوجه الشريف أعنى أن يسلم الوالدان الطبيعيان ولدهم لمرب صالح، وأن يبقى الوالد فيما بعد تحت إراداته كأنه تحت عناية أب إلهى وكفيل لخلاص مقدس. فمتمم السر يرفعه وهو معترف إلى الحياة المقدسة طالباً رفض الشيطان والإقرار الشريف". (فى رئاسة الكهنوت11:7). ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم: "إن كان المعُمدون أفالاً أو طرشاً لا يستطيعون استماع التعليم فليجاوب أشابينهم عنهم، وهكذا يعُمدون حسب العادة (مز14). كما يقول القديس أغسطينوس: "أننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن إيمان الوالدين والأشابين يفيد الأطفال، وعلى هذا الإيمان يعٌمدون" (في السلطة الذاتية 23: 67، رسالة 193: 3).

الدخول إلى المعمودية

الدخول إلى حجرة المعمودية، يعتبر علامة بداية الاستعداد السريع للعماد. ولقد كان هذا يتضمن إجرائين تميهديين: خلع الثياب، والإدهان بالزيت. ثم بعد ذلك يتم العماد بالتغطيس فى جرن المعمودية، ثم يلى هذا التوشح بالثوب الأبيض فى مقابل خلع الثياب السابقة. وهذا يعنى روحياً أنه فى المعمودية المسيحية يتم خلع الإنسان القديم الملوث بالفساد عن طريق الوراثة بالتوالد، ثم إرتداء واكتساء بطبيعة المسيح فى بر كامل وطهارة، وهو ما تؤكده ليتورجية

المعمودية حيث تؤكد الكنيسة على أن يخلع المؤمن قبل نزوله إلى مياه المعمودية كل شيء عليه، ثم بعد العماد يرتدى حلة جديدة بيضاء.

مكان المعمودية

فى القرون الأولى كانت تستخدم المياه الجارية كالبحر، أو العماد بالبيوت أو السجون، أو فى أى مكان نظراً لاتساع الكرازة وبداية انتشار الإيمان فى العالم. فعن معمودية الخصى وزير كنداكة، ومعمودية سجان فيلبى يقول العلامة ترتليان: "ليس فرق سواء اعتمد إنسان فى البحر أم فى بحيرة، أم فى نهر، لأن الروح الواحد هو نفسه يقدس المياه فى كل مكان. ويهب الروح للمياه، قوة التقديس بالاستدعاء والصلاة".

بعد انقضاء زمن الاضطهاد، وبناء الكنائس فى كل مكان، أصبحت توجد حجرة مخصصة للتعميد لها مواصفات معينة ومدشنه بيد الأسقف وبزيت الميرون. ومكان المعمودية الحالى من الناحية الطقسية، فى الشمال الغربى من مدخل الكنيسة. وذلك لأن المعمودية تضم البعدين عن الكنيسة حيث الخطية حيث إن الجهة الغربية ترمز للظلمة والبعد عن الله، والشمال يرمز للضعف، فبالمعمودية يتحول المعُمد إلى اليمين رمزاً نواله القوة بالمعمودية، كما يقول المزمور: "يمين الرب صنعت قوة يمين الرب رفعتنى".

بعد المعمودية ينتقل المعُمد للشرق للتناول من جسد المسيح ودمه، أى أن الإنسان روحياً يعيش فى موطن آدم روحياً فى الشرق.

مناسبة أتمام المعمودية قديماً

كان طقس المعمودية فى بدايته، يتم فى ليلة عيد الفصح (حيث إن المعمد قام مع الرب يسوع فى حياة جديدة). وفى عيد الغطاس بمناسبة عماد السيد المسيح. وفى أحد التناصير بمناسبة

الأعمى[1] الذى أبصر كمثال فعل المعمودية فى النفس. وفى عيد العنصرة بمناسبة الخلاص وحلول الروح القدس وفاعليته فى الأسرار. وهذا الأمر هو ما يؤكد القديس غريغوريوس النزينزى: "البعض يقول أنه سوف ينتظر الغطاس أى اليوم الذى اعتمد السيد المسيح وظهر للعالم والآخر يقول أنه ينتظر الفصح أكثر من غيره من الأعياد والثالث يقول سوف ينتظر العنصرة".

ومع انتشار الكرازة واتساع العمل الرعوى فإن المعمودية تُتمم فى أى وقت، حيث لا يوجد موعوظين بالمعنى السابق. كما أن اختلاف توقيت ومناسبة إتمام سر المعمودية ليس جوهرياً فى الطقس، وتغييره لا يدل على خلل فى الطقس.

ارتباط المعمودية بالصليب والموت لكى يتم الغفران:

بخطية الإنسان الأول أصبح لرئيس العالم سلطان على الإنسان، ومن هنا حدث أن روح الله لم يعد له سكون داخل الإنسان. فكان لابد من إرجاع الإنسان إلى ملكية الله بأن ينال الغفران. والغفران لا يتم إلا بالصليب واستيفاء عدل الله ولا يتم لك إلا بالصليب. لذلك يقول السيد المسيح لابنى زبدى: "... أتستطيعان أن تشربا الكأس".

---

1 تحتفل الكنيسة القبطية فى الأحد السابق لأحد الشعانين ويسمى أحد التناصير بممارسة سر المعمودية وذلك لأن الكنيسة كانت مع بداية الصوم الأربعينى تعد الموعوظين التى تطمئن عليهم ليعمدوا. وكانت فترة الصوم فترة حاسمة مشحونة بالدرس والتعاليم اللازمة لشرح الأسرار والقيم الروحية وكيفية الاستفادة منها وعن هذا يقول العلامة أوريجانوس: ''إن الكنيسة تقوم بهذا العمل لدقة الفحص حتى لا يعُمد إنسان دون التأكد من صدق نيته". لهذا كان الموعوظ بعد الفرز يتقدم أمام الأسقف ليتلو قانون الإيمان علناً ويقبل الصليب ويصلى الأسقف على رأسه للبركة. كما أن أحد التناصير هو أحد المولود الأعمى (يو9) ولأن هذا الأعمى إشارة ورمز إلى الخطية والظلمة الروحية ومن ثم فإن المسيح حينما خلق لهذا المولود عينان جديدتان أمره أن يغتسل فى بركة سلوام وفى هذا ارتباط بين ما حدث للأعمى وبين المغتسل فى ماء المعمودية." إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3: 5). وهكذا يُخلق للإنسان عينين ويصبح وارث للحياة الأبدية ويعاين ملكوت السموات.

فعن العلاقة بين المعمودية والصليب يقول القديس أمبرسيوس: "كانت مارة عين ماء شديدة المرارة، فلما طرح فيها موسى الشجرة أصبحت مياهها عذبة، لأن الماء بدون الكرازة بصليب الرب لا فائدة منه للخلاص العتيد. ولكن بعد أن تكرس بسر صليب الخلاص، يصبح مناسباً لاستعماله فى الجرن الروحى، وكأس الخلاص، إذ أنه كما ألقى موسى النبى الخشب فى تلك العين، هكذا أيضاً الكاهن، فالكاهن ينطق على جرن المعمودية بشهادة صليب الرب فيصبح الماء عذباً بسبب عمل النعمة. إذن فلا ينبغى أن تثقوا كلية فى عيونكم الجسدية، فغير المنظور يُرى فى الحقيقة أكثر من المنظور، لأن ما يُرى هو زمنى، أما الذى لا يُرى فأبدى، ذاك الذى لا يُدرك بالعين بل بالقلب والروح".

<u>أرتبط حلول الروح القدس بالغفران والصليب:</u>

ما قاله السيد المسيح لابنى زبدى: "أتستطيعان أن تشربا الكأس ...". إن الكأس هنا هو الموت، أى الصليب والصبغة هى المعمودية، إذن هناك علاقة وثيقة بين الكأس والصبغة أى علاقة بين الموت والمعمودية. لذلك فعطية المعمودية مرتبطة بعطية الروح القدس، فعطية الروح القدس مرتبطة بموت المسيح على الصليب. كما يقول القديس بولس الرسول: "مدفونين معه بالمعمودية ..." وهنا يربط بين الموت والقيامة، لأن الموت والقيامة هما أساسا المعمودية.

من الممكن توضيح أن حلول الروح القدس على السيد المسيح ليس معناه أن الابن كان غير متحد بالروح القدس قبل المعمودية حتى لا يظن أحد أن حلول الروح بدأ بالمعمودية.

أرتباط المغفرة بحلول الروح القدس فى المعمودية

حيث بالمعمودية نجتاز الموت مع المسيح وبالموت ننال الغفران، وبالغفران نستحق حلول روح الله القدوس. وبالحلول تتم المعمودية إذ يتقدس الماء بالروح القدس فى المعمودية، ويتقدس الإنسان فى سر الميرون بحلول الروح القدس فيه وهكذا تتكامل الحلقات.

إعداد الموعوظين لقبول المعمودية

كان الناس فى العصور الأولى للكنيسة على درجتين: مؤمنون، وهم الذين نالوا سر العماد المقدس. وموعوظين، وهم الراغبون فى العماد، ويسموا فى فترة إعدادهم موعوظين.

والموعوظين يقبلون فى الكنيسة حسب التقليد الرسولى وقوانين الرسل . بطقس خاص يعرف باسم وضع اليد، وكان وضع اليد يعقبه رسم الجبهة بعلامة الصليب. وكان الموعوظ يبقى نحو ثلاثة سنوات فى فترة الإعداد، يُسمح له بالقراءة فى الكتاب المقدس خاصة فى أجزاء معينة منه. كما كانوا يقرأون أسفار الحكمة لابن سيراخ ويهوديت وطوبيا وأعمال الرسل.

درجات الموعوظين (السامعون – الراكعون – المستنيرون)

- السامعون: هؤلاء كان يسمح لهم بحضور الوعظ وسماع فصول الكتاب المقدس، ولم يسمح لهم بحضور صلوات الكنيسة.
- الراكعون: هم سامعون لمدة ثلاث سنوات، وهم خطاه فى طريق التوبة.
- المستنيرون: هؤلاء الذين تم اختيارهم وقدمت أسماؤهم للأسقف وبدا إعدادهم للمعمودية.

خطوات الإعداد لقبول العماد [الموعوظين]

كان الإعداد لقبول سر العمودية يتم فى عدة خطوات على النحو التالى:

1. تقيد الأسماء فى بداية الصوم الكبير.
2. مقابلة مع الأب الأسقف وأشبينه وذلك للتأكد من حياة الموعوظ هل يحيا فى الحياة التى يستحق أن يعمد وهذا فى الأحد الأول للصوم.
3. إذا نجح الموعوظ فى المقابلة يسجل فى سجل بيد الأسقف.

4. فى ليلة عيد القيامة طقس جحد الشيطان والالتصاق بالمسيح. ثم يبدأ طقس المعمودية (الدخول إلى حجرة المعمودية . خلع الثياب . الدهن بالزيت)

كما كان هناك طقس الاستجواب فى الماء قبل المعمودية مباشرة وذلك فى القرون الأولى.

أنواع الزيوت المستخدمة فى المعمودية

يمارس فى سر المعمودية ثلاثة أنواع من الزيوت:

1. **الزيت الساذج أو العادى:** ويسمى زيت الموعظة أو زيت الموعوظين. وكلها مترادفات لهذا النوع الأول من الزيوت، والبعض يفضل أن يؤخذ من زيت الأبوغالميس فى يوم سبت النور ويسكبه الكاهن فى ماء المعمودية مرتين باسم الثالوث القدوس.
2. **الزيت المقدس:** زيت الفرح أو البهجة، وصارت تنطق فى العربية "**غاليلاون**" ويتكون من زيت الزيتون، وأتفال الطيوب المختلفة التى تبقى من الميرون بعد تصفيته. ويدهن به الكاهن الموعظين والأطفال عند جحد الشيطان.
3. **زيت الميرون المقدس.** والميرون كلمة يونانية تعنى "الزيت" أو "الدهن" ويتكون من زيت الزيتون، ومواد أخرى مثل المر القاطر والقرفة العطرة وقصب الذريرة والسليخة وخمير الميرون السابق والطيوب التى أُخذت من جسد المسيح له المجد. ويسكبه الكاهن لتدشين ماء المعمودية، ويدهن المعُمد بهذا الزيت بعد الخروج من المعمودية ... أول من أشار على تسمية هذا الزيت بـ"**الميرون**" فى الكنيسة هو القديس ديديموس الضرير.

الفصل الثامن

بركات سر المعمودية

تمنح الأسرار نعماً غير منظورة بممارسة طقوس منظورة. هذه البركات والنعم هى نتائج سر المعمودية وفعله فى نفوس قابليه. فمن هذه البركات الكثيرة:

1. إن المعمودية تُعطى الولادة الثانية وتجدد خلق الإنسان روحياً وهذا يتبين من خلال قول الرب يسوع لنقوديموس: "الحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3: 6). وهكذا أوضح الفرق بين الولادة الجسدية والولادة الروحية بقوله "اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يو3: 8). يتضح من هذا أن الرب يسوع يدعو المعمودية ميلاداً ثانياً ويبين فعلها السرى غير المنظور.
2. إن المعمودية تمنح الإنسان نعمة التبنى حسب قول بولس الرسول: "أَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ. لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. فَإِنْ كُنْتُمْ لِلْمَسِيحِ فَأَنْتُمْ إِذاً نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ، وَحَسَبَ الْمَوْعِدِ وَرَثَةٌ" (غلا3: 26–29).
3. من نتائجها العتق من عقوبة الخطية وأخذ ميراث الحياة الأبدية حسب قول السيد: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16).

من النصوص المقدسة السابقة يتضح لنا أن نتائج المعمودية غير المنظورة بفعل روح الله القدوس هى الولادة الثانية والتبرير والتبنى وإرث الملكوت. هذه المنح والنتائج مرتبطة بعضها ببعض. لأن نعمة الله إذ تلد الإنسان ثانية تبرره وتقدسه وتجعله ابناً لله الآب مستحقاً لوارثة الحياة الأبدية.

كما يحدث الآباء عن فعل المعمودية وبركاتها، فيقول القديس غريغوريوس النازينزى: "بما أننا من طبيعة مزدوجة أى من نفس وجسد، وحيث إن الطبيعة الأولى (النفس) غير المنظورة، والثانية (الجسد) منظورة لذلك نجد أن عملية التطهير هى أيضاً مزدوجة أى بالماء والروح. وهكذا نتطهر بصورة منظورة جسدياً وبصورة غير منظورة روحياً، بالماء وبالروح. لأنه (أى الروح) يقدر أن يطهر الأعماق. هذا الروح الذى يُمنح لنا فى المعمودية يأتى بنا إلى خلقتنا الأولى ويردنا من العتيق إلى الجديد، ويصهرنا من غير نار، ويعيد خلقتنا من ملاشاة الجسد. وإذا أردنا أن نوجز الكلام فنقول إنه يجب أن نعتبر قوة المعمودية عهد حياة ثانية مع الله ومسلك طاهر جديد".

كما أن القديس برنابا فى رسالته فصل 11 يقول: "تتمم المعمودية لغفران الخطايا فتنزل فى الماء معبئين [تعنى الجمع والشمول] من الخطايا والوسخ، ونصعد مسمرين الخوف فى قلوبنا، ومالكين الرجاء بيسوع فى روحنا"

كذلك القديس يوستينوس فى خطابه إلى تريفون (فصل44) يقول: "يجب أن نفتش ونعرف من أى طريق يمكن أن ننال صفح الخطايا، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها، ولنا فى ذلك طريق واحد فقط، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية وهكذا نبتدىء أن نعيش بالقداسة".

ويقول القديس مرقس الراهب (تلميذ يوحنا ذهبى الفم تنيح بعد 430م): "كل من نال المعمودية قد نال سراً ملء النعمة ولو سار فى جهاده الروحى لإتمام الوصايا فإنه سيصبح مدركاً للنعمة التى فيه ومهما تقدم الإنسان فى الإيمان، ومهما وصلت إليه البركات التى يحصل عليها فإنه مستحيل أن يكتشف أى شئ جديد عما ناله مسبقاً . سراً فى المعمودية . فالرب يسوع المسيح الإله الكامل قد أنزل على المعمودية النعمة الكاملة التى للروح القدس ولذلك فمن المستحيل أن نضيف أى شئ إلى هذه النعمة ولكن ممكن أن تستعلن هذه النعمة وتصبح واضحة فى حياتنا

بصورة متزايدة وهذا يتناسب مع إتمامنا للوصايا. إذاً فمهما قدمنا له بعد تجديدنا إنما هى أمور آتية من لدنه".

كذلك يقول القديس أُغريغوريوس السينائى: "العطية والهبة التي ننالها من الرب يسوع المسيح في المعمودية المقدسة لا يمكن أن تفني ولكن ممكن أن تختفي مثل كنز تم إخفاؤه في الأرض وطالما أن الفكر والمطلب الطبيعي يطلب منا أن ننقب عن هذا الكنز كي نستخرجه من الأرض – هكذا الأمر بالنسبة لأمور حياتنا الروحية "وهذا الأمر يتم بأمرين، **الأول:** هو الجهاد فى إتمام الوصايا وكلما اجتهدنا فى الأمر أكثر فأكثر كلما أنارت واشعت هذه العطية علينا فى جمالها وبهائها. و**الثانى:** أن هذه العطية تبدو واضحة إن واظبنا على الاستمرارية فى الصلاة للرب يسوع أى بالتذكر الدائم للرب يسوع.

كما يقول القديس ذهبى الفم (344–407م): "لقد عاين بنو إسرائيل قوة الله القوية فى أعماله التى بها أخرجهم من أرض مصر، لكنكم اختبرتم ما هو أفضل وأقوى من هذه الأعمال فبدلا من أن تروا فرعون وجنوده يغرقون فى البحر الأحمر نراكم تحملون الشهادة بأن الشيطان وجنوده يتم ابتلاعهم فى ماء المعمودية، لقد عبر بنو إسرائيل البحر الأحمر ولكنكم تعبرون من الموت إلى الموت إلى الحياة. لقد نجوا هم من الشرير وأنتم نجوتم من الشرير وجنوده، هم تم خلاصهم من العبودية إلى أرض غربتهم وأنتم تم خلاصكم من أمر صعب، من عبودية الخطية".

ويقول أيضاً: "إن معمودية النعمة تطهر كل إنسان، سواء كان فاسداً أو زانياً، عابداً للأصنام أو غير ذلك، لأنه مهما كان غارقاً فى الخطية فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الإلهية أنقى من أشعة الشمس عينها، وليس نقياً بل قديسا بل باراً أيضاً، لأن الرسول لم يقل "وأغتسلتم" فقط بل قال "وتقدستم وتبررتم باسم الرب يسوع" (1كو6: 11). ثم أنه فضلاً عن نوالنا بالمعمودية صفح الخطايا والتنقية من الماثم والمظالم، فإننا نولد بعد المعمودية ولادة ثانية ونخلق ونصور بها"

كما نرى ذهبى الفم يقول أيضاً: "لا تقل كنيقوديموس: "كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟" (يو3: 4)، ولا تقل للكاهن كما قال إسحق لأبيه إبراهيم "هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ وَلَكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟"(تك22: 7) ولا تقل لنفسك عندما تدنو من جرن المعمودية هوذا الماء فأين الروح؟ لا تكن مرتابا بل مؤمنا فليس هناك ما يرى بالعين المجردة ولكن النفس المؤمنه تشعر به روحياً "اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يو3: 6) "اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنَ اللَّهِ" (يو1: 13). خذلك . برهانا ـ النار البابلية التى التهمت الرباطات وصانت أجساد الفتية الثلاثة . فالمعمودية أيضاً تلتهم الخطايا وتصون الجسد".

كذلك يقول القديس اكليمنضس الأسكندرى 150ـ 215م: "هذا الأمر عينه يحصل لنا أيضاً الذين قد صار لنا المسيح مثالاً فإذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نتبنى، وإذ نتبنى نكمل، وإذ نكمل نضحى غير مائتين. كما يقول: "أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلى جميعكم" ويدعى هذا الفعل بأسماء كثيرة أعنى نعمة واستنارة وكمالاً وحميماً. فهو نعمة إذ به تُترك عقوبات خطايانا، واستنارة اذ به يُرى النور القدوس الخلاصى، أعنى أننا نشخص به إلى اللاهوت، وكمالاً لأنه لا يحتاج إلى شىء.

وفى ذلك يقول أيضاً القديس كيرلس الأورشليمى (314 – 387م): "عظيمة هى المعمودية المعدة فداء عن المأسورين وصفحاً للأوزار، وموتا للخطية، وولادة ثانية للنفس، وثوبا نيراً، وختماً مقدساً لا ينفك، ومركبة إلى السماء، وتعليم الفردوس، وعلة الملكوت، ومنحة التبنى".

كما نجد الهراطقة أنفسهم رغم إيمانهم الخاطىء فى شخص السيد المسيح الابن الكلمة، إلا أنهم يتحدثون عن بركات المعمودية. فها هو ثيؤدور الموبسستى[1] يقول: "إن ما نناله في المعمودية ليس عطية عادية لكن عطية بواسطتها نصبح بالكلية خليقة جديدة ونستقبل بها كل عطية روحية جديدة وكل فضيلة روحية من خلال حياة النعمة الإلهية التى نستقبلها ونأخذها

1 أسقف موبستا فى كليكيه، اعتلى الأسقفية فى 392م، وتنيح فى 428م، وهو يعد أب النسطورية.

فإننا بطبيعتنا الأولى خليقة ضعيفة متغيرون ومتقلبون ومعرضون للآلام والأحزان ونعود دوماً إلى حالتنا الأولى إلى العدم الذى نحن منه. ولكن بالعطية الإلهية نصبح غير مائتين وغير متقلبين غير متغيرين، محصنين فى الآلام إذ نتحول من عبيد إلى أحرار . نتحول من أعداء الرب الإله إلى محبوبين منه من عبيد مقيمين خارجاً إلى أولاد له. فالموت لن يسود علينا بعد لأننا امتلكنا حياة جديدة . ليس كعبيد للخطية بل كخدام للقداسة لسنا فى خدمة الشيطان ولكننا فى كنيسة المسيح نعيش إلى الأبد"

فاعلية سر المعمودية:

1.بالمعمودية يتم الخلاص "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16)، "بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغَسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تي3:5)، "الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ. لاَ إِزَالَةُ وَسَخِ الْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ اللهِ بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (1بط3: 20،21).

2.بالمعمودية ننال الميلاد الثانى من الماء والروح "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3:3)، "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو3: 5)، "لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّراً إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ" (أف5: 26).

† بها يتم الميلاد الثانى (ننال التبنى) وندخل الفردوس ثم ملكوت السموات: المعمودية ولادة من الله (من الروح القدس والماء) لا من الناس (الأب والأم) كما في حديث ربنا يسوع لنيقوديموس معلم الناموس اليهودى "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟ أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ.لَمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يو3: 6،3). فبدون المعمودية (الميلاد الذى من فوق . الميلاد الثانى . الميلاد الذى من الماء والروح) لا يقدر أحد أن يعاين ملكوت الله ولا يدخل إلى ملكوت الله ولو كان من

الصالحين أو من الأطفال الأبرياء، إذ بالمعمودية ننال التبنى ومن ثم نصير ورثة لملكوت الله. وهكذا يصير لجميع الذين ولدوا منها أب واحد هو الله وأم واحدة هى المعمودية.

† يقول القديس أغسطينوس: "لنا ميلادان أحدهما أرضى، والآخر سماوى. الأول من الجسد والثانى من الروح. الأول صادر عن مبدأ قابل للفناء، والثانى عن مبدأ أبدى. الأول من رجل وامرأة، والثانى من الله والكنيسة. الأول يجعلنا أبناء الجسد، والثانى أبناء الروح. الأول يصيرنا أبناء الموت، والثانى أبناء القيامة. الأول أبناء الدهر، والثانى أبناء الله. الأول يجعلنا أبناء اللعنة والغضب، والثانى أبناء البركة والمحبة. الأول يقيدنا بأغلال الخطيئة الأصلية، والثانى يحلنا من رباطات كل خطيئة".

3.المعمودية هى غسل من الخطايا: "أيها الأخ شاول.. وَالآنَ لِمَاذَا تَتَوَانَى؟ قُمْ وَاعْتَمِدْ وَاغْسِلْ خَطَايَاكَ دَاعِياً بِاسْمِ الرَّبِّ" (أع22: 16)، "لَكِنِ اغْتَسَلْتُمْ بَلْ تَقَدَّسْتُمْ بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلَهِنَا" (1كو6: 11).

4.ننال بالمعمودية التبرير ومغفرة الخطايا: ننال غفران جميع خطايا الأصلية والفعلية، فالمعمودية تمارس بالماء الذي يستعمل للغسل وهى مقدسة ومطهرة ومبررة من الخطية الجدية بفعل الروح القدس وعمله غير المنظور.

† "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع2: 38).

† "أنا يوحنا المعمدان: أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ وَلَكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ" (مت3: 11). ويقول القديس بولس الرسول: "لَكِنِ اغْتَسَلْتُمْ بَلْ تَقَدَّسْتُمْ بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلَهِنَا" (1كو6:11). ويقول أيضاً: "بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغَسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تي3: 5).

† "وأما فى الحياة الدنيا (الحاضرة) فلا يُعفى المعُمد من العقوبات الناتجة عن الخطية فلا زال المرض والموت والأتعاب والأوجاع والتجارب وغيرها من نتائج الخطية الأصلية وذلك لكى تذكره هذه العقوبات الدنيونية بنتائج الخطية الأصلية فيحذر من أن يسقط فى خطية فعلية تجلب عليه من جديد نتائج خطية آدم الأول التى أُعتق منها بالمعمودية. كما أنها محك لفضيلته وامتحان لصموده وصبره فإذا احتمل وصبر وثبت أمام الإغراءات ولم يفشل بسبب ما يلاقيه فى الدنيا من صعوبات وأحزان نجح وصار خليقاً بفردوس النعيم وملكوت السماوات "لأَنَّ خِفَّةَ ضِيقَتِنَا الْوَقْتِيَّةَ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثِقَلَ مَجْدٍ أَبَدِيّاً" (2كو4: 17).

5.ننال بها نعمة التبنى: "لأَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ. لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غلا3: 26. 28).

6.المعمودية هى موت مع السيد المسيح وقيامة معه.

المعمودية هى موت مع المسيح وقيامة معه ... وبها عملية تجديد ... وبها نلبس المسيح .. كما أنها انضمام لعضوية الكنيسة مثلما كان الختان هو انضمام لعضوية شعب الله.

† "لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ" (رو6: 23).

† "لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهاً بِمَوْتِهِ" (فى3: 10).

† "أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ. فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (رو6: 43).

† "مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ" (كو 2: 12).

† "فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ نُؤْمِنُ أَنَّنَا سَنَحْيَا أَيْضاً مَعَهُ" (رو6: 83).

7.في المعمودية عملية تجديد (رو6: 4) لذلك فى المعمودية يتغير الاسم ويلبس الطفل ثيابا بيضاء رمز للتجديد.

8.في المعمودية نلبس المسيح: "لأَنَّ كُلاَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ" (غل 3: 27).

القديس كيرلس الأورشليمى: "قبل المعمودية لم تكن لكم القوة لتحاربوا إبليس ولكن فور أن تم ميلادكم الثانى نلتم القوة التى بها تحاربون بأسلحة البر في المسيح يسوع وباسم الرب يسوع وأن تنشروا إنجيل الخلاص فأنتم الآن تلبسون كل أسلحة الله وأصبحتم قادرين أن تقفوا ضد كل قوة العدو وتنتصروا، لأجل هذا قال القديس بولس "أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي" (في4: 13).

9. فى المعمودية ننال استنارة روحية:

+ القديس بولس الرسول: "لأَنَّ الَّذِينَ اسْتُنِيرُوا مَرَّةً، وَذَاقُوا الْمَوْهِبَةَ السَّمَاوِيَّةَ وَصَارُوا شُرَكَاءَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَذَاقُوا كَلِمَةَ اللهِ الصَّالِحَةَ وَقُوَّاتِ الدَّهْرِ الآتِي،. وَسَقَطُوا، لاَ يُمْكِنُ تَجْدِيدُهُمْ أَيْضاً لِلتَّوْبَةِ، إِذْ هُمْ يَصْلِبُونَ لأَنْفُسِهِمِ ابْنَ اللهِ ثَانِيَةً وَيُشَهِّرُونَهُ" (عب6: 64).

† القديس الفليسوف اكليمنضس الإسكندرى: "إن خطايانا تُغفر بدواء واحد عظيم، بمعمودية الكلمة (الله الكلمة). إننا بالمعمودية نتطهر من جميع خطايانا ونصير فى الحال مبرَّئين من الشر. وهى بعينها نعمة الإنارة حتى إننا لا نبقى بعد اهتدائنا كما كنا قبل أن نغتسل، نظراً إلى أن المعرفة تبزغ مع الإستنارة وتضىء حول العقل. ونحن الذين كنا بلا معرفة أصبحنا على التو متعلمين هذه المعرفة وقد أُنعِمَ علينا بها ... لأن التعليم التهذيبى (الصالح) يقود إلى الإيمان، والإيمان (حقائق الإيمان) يُلقَّن لنا بالروح القدس فى المعمودية"

† القديس غريغوريوس النزينزى: "الاستنارة وهى المعمودية .. هى معينة الضعفاء ... مساهمة النور انتفاض الظلمة".

الاستنارة مركب يسير تجاه الله، مسايرة المسيح، الاستنارة مفتاح الملكوت واستعادة الحياة ... نحن ندعوها عطية، وموهبة، ومعمودية، واستنارة، ولباس الخلود وعدم الفساد، وحميم الميلاد الثانى وخاتماً، وكل ما هو كريم".

10.فى المعمودية انضمام لعضوية الكنيسة: "وَبِهِ ايْضاً خُتِنْتُمْ خِتَاناً غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا الْبَشَرِيَّةِ، بِخِتَانِ الْمَسِيحِ. مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا اقِمْتُمْ ايْضاً مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ، الَّذِي اقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (كو2: 11.12).

11.تعطينا ميراث الحياة الأبدية: "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي حَسَبَ رَحْمَتِهِ الْكَثِيرَةِ وَلَدَنَا ثَانِيَةً لِرَجَاءٍ حَيٍّ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مِنَ الأَمْوَاتِ،. لِمِيرَاثٍ لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ، مَحْفُوظٌ فِي السَّمَاوَاتِ لأَجْلِكُمْ" (1بط1: 3.4).

† قال القديس برنابا: "تمم المعمودية لغفران الخطايا فتنزل فى الماء بالخطايا والوسخ، ونصعد مسمرين الخوف فى قلوبنا، ومالكين الرجاء بيسوع فى روحنا".

† قال القديس يوستينوس: (فى خطابه إلى تريفون فصل 44) (يجب أن نفتش ونعرف من أى طريق يمكن أن ننال صفح الخطايا، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها، ولنا فى ذلك طريق واحد فقط، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية وهكذا نبتدىء ان نعيش بالقداسة).

† قال القديس اكليمنضس الأسكندرى: (هذا الأمر عينه يحصل لنا أيضاً الذين قد صار لنا المسيح مثالاً فإذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نتبنى، وإذ نتبنى نكمل، وإذ نكمل نضحى غير مائتين. كما يقول (أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلى جميعكم "ويدعى هذا الفعل بأسماء كثيرة أعنى نعمة وإستنارة وكمالاً وحميماً. فهو نعمة إذ به نترك عقوبات خطايانا، واستنارة اذ به نرى النور القدوس الخلاصى، أعنى أننا نشخص به إلى اللاهوت، وكمالاً لأنه لا يحتاج إلى أى شىء، وحميم لأننا به نغسل خطايانا) (المربى كتاب 1 فصل 6 : 226).

† قال القديس غريغوريوس الثاولوغوس: (إن نعمة المعمودية تنقى الإنسان من كل خطية وتغسله غسلاً كاملاً من الأوساخ والأقذار اللاحقة به من الرذيلة ... وهى من حيث أنها نجدة للولادة الأولى تجعلنا جدداً من عتق، والهيين بدلاً مما نحن عليه) (خطبة فى المعمودية).

† وقال القديس باسيليوس الكبير: (المعمودية فدية المأسورين، وصفح الأوزار، وموت الخطية، وإعادة ولادة النفس، وثوب نير، وختم لا ينفك، ومركبة إلى السماء تؤدى إلى الملكوت، ومنحة التبنى) (تعليم ابتدائى للموعظين فصل 16).

† قال القديس يوحنا ذهبى الفم: (إن معمودية النعمة تطهر كل إنسان، سواء كان فاسداً أو زانياً، عابداً للأصنام أو غير ذلك، لأنه مهما كان غارقاً فى الخطية فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الإلهية أنقى من أشعة الشمس عينها، وليس نقياً بل قديسا بل بارا أيضاً، لأن الرسول لم يقل "وأغتسلتم" فقط بل قال "وتقدستم وتبررتم باسم الرب يسوع" ثم انه فضلاً عن نوالنا بالمعمودية صفح الخطايا والتنقية من الماثم والمظالم، فاننا نولد بعد المعمودية ولادة ثانية ونخلق ونصور بها) (عظة ثالثة).

† قال القديس أوغسطينوس: (أننا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية، سواء كانت من آدم الذى به أخطأ الجميع، أو بفعلنا وقولنا لأننا نغسل منها بالمعمودية) (رسالة 178 : 28).وهكذا علم باقى الآباء القديسين معلمى الكنيسة فى كل الأجيال.

الفصل التاسع

طقس سر المعمودية

يتلخص إتمام طقس سر المعمودية من الوجهة الطقسية، على النحو التالى:

1. تقديس الأطفال المعُمدين.
2. تقديس مياه المعمودية.
3. تحليل المرأة.
4. جحد الشيطان.
5. العماد وحلة الزنار.

1. **تقديس الأطفال المعُمدين:** ويتم ذلك بالدهن بالزيت الساذج على شكل صليب فى الجبهة والقلب والظهر واليدين والمقصود بذلك عدم التصاق الشر بأولاد الله وثباتهم فى الله.
2. **تقديس مياه المعمودية:** تعليمات الكنيسة الأولى كما هى مدونة فى كتب الطقس القديمة، كانت تشدد بأن الكاهن لابد وأن يلبس ملابس الخدمة، أى الملابس البيضاء أولاً، ثم يدخل إلى المعمودية ليبدأ صلوات تقديس الماء.

- يصب الكاهن الزيت العادى على مياه المعمودية على مثال صليب ويرشم قائلاً.
- صلاة سرية للمعُمد حتى يستحق المعُمد الامتلاء من الروح القدس.
- صلاة الشكر ويرشم جرن المعمودية.
- يرفع بخور (5 أيادى بخور) ويقرأ البولس (تي2) والكاثوليكون (1يو5: 14) بدون رفع بخور. ثم الابركسيس (يد بخور واحدة) (أع8: 4026). ثم الثلاث تقديسات وأوشية الإنجيل، ثم الإنجيل (يو3: 1. 21).

- تصلى السبع أواشى الكبار (مرض . مسافرين . الطبيعة . الملك . الراقدين . القرابين . الموعوظين).
- يصلى الكاهن صلاة استعداد وهو منطرح على جرن المعمودية.
- يصلى الكاهن الثلاث أواشى الكبار (سلام . آباء . اجتماعات) ثم يتلى قانون الإيمان.
- يكسب زيت الغاليلاون على جرن المعمودية بمثال الصليب.
- ينفخ على المياه 3 مرات ويصلى من أجل تقديس الماء للولادة الجديدة.
- يرشم الصليب ثلاثة مرات ويصلى: صوت الرب على المياه ... ويرد الشماس الأسبزمس.
- يسكب الكاهن زيت الميرون ويرشم الصليب ثم أبانا الذى فى السموات ... والتحاليل.
- يحرك الكاهن المياه بيده ويصلى (مز28) "صوت الرب على المياه" (مز31)، ثم "تعالوا يا أبنائى واستنيروا (مز5: 9.7) ...
- يرتل الشعب المزمور 150 وهو يعُمد الكاهن الطفل.
- بعد التعميد يغسل الكاهن يديه والصليب داخل جرن المعمودية.
- يصلى الكاهن صلاة تسريح ويصرف الماء.

ملاحظات على طقس تقديس ماء المعمودية

1. نسكب الزيت العادى على ماء المعمودية لكى يبعد عن الماء كافه الشياطين وأعمالهم. ثم نسكب الزيت بمثال الصليب، لأن الصليب هو علامة الغلبة التى يهرب منها الشياطين.
2. زيت الغاليلاون نسكبه على الماء لتقديس الماء تماماً، يتحول الماء إلى ماء مقدس ذى طبيعة مقدسة وليس ماء عادى .. كلمة (الغاليلاون) كلمة يونانية معناها البهجة أو الفرح.
3. الصلاة السرية التى يصليها الكاهن وهو منطرح على جرن المعمودية (الذى يمثل الأردن) أى أن المعمودية امتداد للأردن وهذه الصلاة مشابهة لصلاة الحجاب التى يصليها الخديم فى القداس. كليهما يظهر نفس الغرض ونفس المفهوم الروحى (يا الله الذى من أجل ...).
4. ينفخ الكاهن فى الماء ثلاثة مرات لتوصيل عمل الروح القدس فى الماء.

5. صلاة الشكر هى فعل تسبيح وشكر مهيب، فعل عبادة يخاطب فيه الكاهن الله بالنيابة عن العالم كله، ومن يقدم الشكر للرب الإله لا يبقى عبداً لأنه لا يوجد مكان للخوف والقلق فى العبادة، إذ بتقديم الشكر للرب الإله يعود الإنسان حراً من جديد ـ حراً فى علاقته بالرب الإله وحراً فى علاقته بالعالم.

6. الجزء الذى يقرأ فى البولس يتحدث عن المعمودية وفعلها فى حياتنا، الكاثوليكون يوضح لنا أنه لا غلبة لهذا العالم إلا بالإيمان بالرب يسوع المسيح، إذاً يجب أن نقبل شهادة الله فى أنه من يقبل الابن فله الحياة، وهذه الشهادة التى نقبلها إنما هى بالماء والدم والروح، الإبركسيس يتحدث عن حادث تعميد القديس فيلبس لوزير كنداكه.

7. المزمور يتحدث عن الإنسان المطوب الذى غفر له الرب آثامه وسترت خطاياه، وهذا التطويب لمن لا يحسب له الرب خطية وها إشارة إلى عمل المعمودية المجانى، الإنجيل يتحدث عن لقاء نيقوديموس بالرب يسوع المسيح وما دار بينهما من حديث عن الميلاد الثانى.

8. الصلاة التى يصليها الكاهن بعد مستحق وعادل يذكر كافة رموز المعمودية التى تمت فى العهد القديم إشارة إلى معمودية العهد الجديد وهى:

9. روح الله كان يرف على وجه المياه فى بدء الخليقة إشارة إلى بث روح الحياة فى الماء (تك1: 2).

10. الطوفان الذى طهر العالم من شره القديم.

11. عبور بنى اسرائيل البحر الأحمر.

12. تمتع الشعب بمياه الصخرة بعد عبورهم البحر الأحمر.

13. المياه المرة التى حولها إلى مياه حلوة (خر15: 2522).

14. قبول ذبيحة إيليا على جبل الكرمل (1مل18) شفاء نعمان السريانى (2مل15).

15. القطع التى تصلى بعد أجيوس: لأجل إعادة خلق الماء ليصير ماء محيياً يطهر الخطايا. وماء الميلاد الثانى.

16. يحرك الكاهن الماء بالصليب وهو يتلو المزامير على هيئة صليب متشبها بالملاك الذى كان يحرك ماء بركة بيت حسداً (يو5: 4).

لماذا عين الرب الماء للمعمودية؟

بما إننا مؤلفون من جسد وروح، لذلك عين الله تعالى أن تكون وسائط خلاصنا وأسرار النعمة التى يفيضها علينا الروح القدس، تحت علامات حسية وإشارات منظورة كما قلنا سابقاً. ففي سر المعمودية عين الرب لميلادنا الثانى الماء وذلك للأسباب التالية:

- كان للماء أهميته القصوى بالنسبة لحياة الإنسان فى العهد القديم فهو أساس الحياة (تك1). وهو أساس الموت والخراب كما فى الطوفان، وإغراق مركبات فرعون فى بحر سوف. كذلك فهو أيضاً عنصر التطهير والغسل. لذلك اتخذه الله فى العهد الجديد ليكون سر الخليقة الجديدة وسر بدء الميلاد الجديد.
- لأن الماء يغسل الأقذار، والمعمودية تنقى من الخطايا.
- الماء يجدد وينعش الجسم، والمعمودية تحيى خواص النفس.
- لأن الماء قوام الحياة، لا وجود للحياة من دون الماء، لهذا السبب ربط الإنسان دوماً الماء بالحياة، والمعمودية تمنح الخلاص.
- لأن المعمودية مثال موت المسيح ودفنه ولابد أن نماثله فى الدفن. فأين الدفن؟ (رو6:4،5) "فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ".
- الماء وسيلة التجديد (الطوفان).
- كامر السيد المسيح نفسه "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو3: 5).
- وقد شددت شريعة موسى (التوراة) على ضرورة الاغتسال للطهارة الجسدية، ولاسيما قبل الرسامة الكهنوتية لبنى هارون (خر29: 4)، (لا8: 6)، رئيس الكهنة لا يقدم البخور فى العهد القديم إلا بعد ان يغسل بالماء (خر29: 4)، حتى هارون غسل بالماء أولاً ثم نُصب رئيسا

للكهنة (لا8: 6)، لهذا وجدت المرحضة فى خيمة الاجتماع. كما شددت على ضرورة (الوضوء) Ablution قبل الصلوات اليومية ومن المعروف أن المياه هى أساس الحياة.

- المياه هى العنصر أو المادة التى بها تحقق موت المسيح وقيامته، يقول الإنجيل المقدس: ".. **مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ**" (كو2 :12).
- الماء رمزٌ لعمل النعمة فى الإنسان ورمز لحلول الروح القدس" وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ" (تك1: 2) إذاً فبدء العالم هو الماء كما أن الأردن هو بداية بشارة الإنجيل. "..من آمن بى تجرى من بطنه أنهار" (يو7)، "تَرَكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ، لِيَنْقُرُوا لأَنْفُسِهِمْ أَبْآرًا، أَبْآرًا مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَاءً" (إر2: 13).
- بالماء كان خلاص بنى اسرائيل من عبودية فرعون فى البحر الأحمر.
- الرب يسوع نفسه قدس ماء المعمودية بنزوله فى نهر الأردن لهذا يقول القديس كيرلس الأورشليمى: "لا تنظروا للجرن كماء بسيط بل بالحرى تطلعوا إلى النعمة الروحية التى توهب مع الماء".
- مادة سر المعمودية هى الماء، كما ورد فى (يو2: 5) كما أن الرسل لم يستعملوا سوى الماء فى المعمودية (اع8: 26). فكما أن الماء يستخدم لنظافة الجسد من الأقذار، يسجل الكتاب المقدس أن الماء يطهر من أحد عشر نوعا من الدنس والتلوث الجسدى، وهو أمر قديم العهد بالإنسان إذ كان كهنة قدماء المصريين يستخدمون الماء للتطهير الطقسى قبل العبادة . فى المعابد كما روى المؤرخ هيرودت فى القرن 5ق.م.

من الجدير بالذكر أن السيد المسيح اكد على أهمية وأولوية الطهارة الداخلية (نقاوة القلب والنية السليمة) وأنه لا فائدة من الغسلات الفريسية الكثيرة والقلب مدنس بالشر والشهوات والعادات الشريرة الضارة بالنفس والجسد. وفى ذلك يقول القديس أغسطينوس: "ما معمودية المسيح سوى حميم ماء نقى وبعض عبارات (صلوات تقال عليه لاستدعاء الروح القدس لينسكب على المياه فتصير مياه نارية) فإن نزعتم الماء فليس تعميدا وإن حذفتم الصلوات فليس تعميدا أيضاً".

كما يقول القديس غريغوريوس الكبير: "بما أننا مركبون من نفس وجسد وأحدهما طبيعته منظورة والآخر طبيعته غير منظورة، لهذا جعل التطهير مضاعفاً . أعنى بالماء والروح القدس . أما الواحد للجسد المنظور واما الآخر فللنفس غير المنظورة".

كذلك نجد أن القديس يوحنا ذهبى الفم يقول: "لماذا تُعد المياه ضرورية للمعمودية؟ وهذا بدوره يقودنا إلى سؤال أخر، لماذا كان التراب ضرورياً لخلق الإنسان؟... إن الدور الذى تقوم به المياه ضرورى ولا يمكن استبدال الماء بأى شئ أخر، وهذا نتحقق منه من الحادثة التالية. عندما حل الروح القدس قبل التعميد، لم يكتفِ الرسول بذلك، لأن المياه ضرورية للتعميد، وليست شيئاً زائداً. فماذا قال: "أَتُرَى يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ حَتَّى لاَ يَعْتَمِدَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ كَمَا نَحْنُ أَيْضًا؟" (أع10 :47) فما هو دور المياه؟ ... فى المياه يتم الدفن والموت و القيامة والحياة. كل هذه تحدث مرة واحدة عندما تغطس رؤوسنا تحت المياة كما لو كنا في قبر ...".

كما يتحدث القديس كيرلس الأورشليمى: "المياه تطهر الجسد، والروح يختم النفس لكى تقترب من الله، وقد رُشت قلوبنا بالروح، واغتسلت أجسادنا بماء نقي "إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئًا. وَلكِنْ يَصِيرُ إِدْخَالُ رَجَاءٍ أَفْضَلَ بِهِ نَقْتَرِبُ إِلَى اللهِ" (عب9: 19)، ولكي تولد النفس مرة ثانية بإيمان، فالجسد يشترك في النعمة بالماء".

3 -صلوات تحليل المرأة

تختلف هذه الصلاة عندما يكون المولود ولد، عنها عندما يكون المولود بنت. فنجد أن القراءات التي تقرأ من البولس، والإنجيل عندما يكون المعمد ذكر على النحو التالى: البولس (عب1: 8-12)، والإنجيل من (لو2: 21-35). أما إذا كان المعمد أنثي فنجد أن القراءات التي تقرأ من البولس (1كو7: 12-14) والإنجيل (لو10: 38-42).

كما تكون الصلوات في تحليل المرأة مصحوبة بالبخور للدلالة على ارتفاع الصلوات إلى السماء لتكون مقبولة كرائحة هذا البخور العطرية.

4 -صلوات جحد الشيطان

هذه الصلاة هى تعبير وإعلان عن إرادة المعمد لتركه الخطية ورفضه لها. كما أنها تهيئة للشحص المعمد لقبول المعمودية واستعداد للدخول في فلك المسيح (الكنيسة). وكانت صلاة جحد الشيطان قديماً تتم في الفجر لحظة الفصل بين الظلمة والنور علي أساس أن الجحد أيضاً ينقل من الظلمة إلى النور.

كما يفسر لنا القديس كيرلس الأورشليمى السبب في أن جحد الشيطان يتم في أثناء وقوف المتقدم إلى المعمودية نحو الغرب فيقول: "إنني سوف أشرح لك لماذا تقف متجهاً نحو الغرب. فبما أن الغرب هو جهة الظلمة المنظورة، ونظراً لأن الشيطان الذى صارت الظلمة من نصيبه، ومملكته كائنة في الظلمة. فإنك حينما تتجه بطريقة رمزية نحو الغرب فإنك بهذا تجحد هذا الظالم المظلم".

كما يقول أيضا: "وما العبارة التى لفظها كل منكم وهو واقف . ألم يقل أجحدك أيها الشيطان أى أننى لم أعد أخشى قوتك لأن رب المجد يسوع المسيح قد سحقها إذ شاركنى فى الدم واللحم ليبطل الموت بالموت (عب2: 14. 15) ولكى لا أظل أنا تحت نير العبودية، أجحدك أيها

الثعبان الماكر وصانع كل شر أجحدك يا من تحيك الشراك وترتكب كل أثم تحت قناع الصداقة أجحدك يا من أوحيت لأبوينا الأولين بمعصيتهم الأولى. أجحدك أيها الشيطان الصانع والمحرض على كل فساد".

طقس جحد الشيطان

كان يمارس فى العصور الأولى والشخص واقف ورافع يده إلى فوق وحانى رأسه والكاهن واضع يديه على رأسه كما فى (تث18: 13). ورفع يديه يدل على الإعلان. وفى هذه الأثناء يصلى الكاهن ويطلب من الله أن يبارك المُعمَّدين، ثم يردد الكاهن التعهد الذى يتلوه وراءه الموعوظ أو الإشبين للطفل المُعمد.

وأثناء التعهد يكون الإشبين أو الوصى متجه نحو الغرب والطفل على اليد اليسرى له، وهذا إشارة إلى التغرب والبعد عن الله والخضوع لسلطان إبليس.

ثم يتجه الإشبين نحو الشرق حيث المسيح شمس البر ونور الرب اشرق على الجالسين فى الظلمة وينقل الطفل على الذراع الأيمن ثم يتلو الإشبين قانون الإيمان. ويتم طقس جحد الشيطان والطفل معرى تماماً من الملابس اشارة إلى ان المعمودية خلع للإنسان العتيق مع أعماله.

العماد وحل الزنار

بعد جحد الشيطان يدهن المُعمد بزيت الغاليلاون فى قلبه قدام وخلف ووسط يديه (ذراعيه)، الدهن بزيت الغاليلاون إنما يحمل عملية التطعيم فى الكنيسة التى هى شجرة الزيتون الدسمة عوض الزيتونة البرية. للتمتع بقوة لمحاربة الشياطين وقوات الظلمة.

فى ذلك يقول القديس كيرلس الأورشليمى: "عندما خلعتم ثيابكم مُسحتم بالزيت المصلى عليه وصرتم شركاء فى الزيتونة الحقيقية التى هى الرب يسوع المسيح. لقد قطعتم من الزيتونة البرية وطعمتم فى الشجرة المقدسة وأصبحتم شركاء فى دسم الزيتونه الحقيقة، بهذا يبطل كل أثر لقوة الشر ... وذلك بالتوسل باسم الله كأشد اللهيب قوة تلفح الأرواح الشريرة وتطردها، هكذا أيضاً يأخذ هذا الزيت قوة بالتوسل إلى الله والصلاة فيحرق الخطية وينظف آثارها كما يطرد قوات الشرير غير المنظورة".

يعمد الطفل ويكون يد الكاهن اليمنى ممسكة برأس الطفل من المؤخرة ويده اليسرى ممسكة برجلى الطفل ويعمد باسم الآب والابن والروح القدس. ثم ينفخ فى وجه الطفل لقبول الروح القدس. يقوم الكاهن بتجفيف الطفل من ماء المعمودية، ثم يقوم بإتمام سر الميرون، وذلك برشمه بزيت الميرون 36 رشمة للتثبيت. ويكون كل رشم على شكل صليب، وفى ذلك تريد الكنيسة أن تعلم أولادها أن الخلاص هو بالصليب.

يرتدى المُعمد الملابس البيضاء رمزاً للطهارة والعفاف والحياة الجديدة للإنسان المُعمد بدون خطايا ولأنه بالمعمودية صار كالملائكة. كما يلبس المُعمد الزنار الأحمر رمز الميثاق والعهد الجديد إشارة إلى دم المسيح الذى سفك على عود الصليب. ويلبس الطفل الزنار من أسفل الإبط الأيسر إلى أعلى الكتف الأيمن وذلك بيد الكاهن[1].

علة التغطيس فى المعمودية

1. ولادة ثانية جديدة تشمل جميع أجزاء الجسم (تى3: 5).
2. المعمودية باليونانية (بابتزما) أى صبغة والصبغة لا تتم إلا بغمر الجسم كله فى مادة الصبغة.

1 يذكر أن هناك طقس قديم كان يُبقى الزنار على المُعمد لمدة اسبوع، ثم يستدعى الكاهن ليقوم بالصلاة وفك الزنار ويستحم الطفل ويغسل الزنار وتطرح المياه فى بئر أو جرن المعمودية.

3. المعمودية دفن وموت مع المسيح "مدفونين معه..".

4. المسيح نفسه تعمد بالتغطيس، فى ذلك يقول الإنجيل المقدس: "فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ ..." (مت3: 16).

5. كما أن الصعود يدل على الإنغماس فى الماء والنزول فيه. فقد قيل عن الوزير الحبشى: "وَلَمَّا صَعِدَا مِنَ الْمَاءِ، خَطِفَ رُوحُ الرَّبِّ فِيلُبُّسَ، فَلَمْ يُبْصِرْهُ الْخَصِيُّ أَيْضًا، وَذَهَبَ فِي طَرِيقِهِ فَرِحًا" (أع8: 39).

6. المعمودية بالتغطيس تعنى التعرى الكامل وخلع الإنسان العتيق، وعن هذا يقول القديس يوحنا ذهبى الفم: "تصبحون عراة مثل آدم فى الفردوس مع الفارق ففى المعمودية نتعرى كما نتحرر من الخطية". كما يقول القديس أمبروسيوس: "نحن نأتى إلى جرن المعمودية عراة كما نأتى إلى العالم".

7. كذلك المعمودية بالتغطيس ثلاث مرات هى مثال لدفن المسيح ثلاث أيام فى القبر وصعودنا من جرن المعمودية دلالة على قيامتنا من القبر.

عن التغطيس أيضاً يقول القديس غريغوريوس النيسى: "فلنسأل لماذا يحدث التطهير بواسطة الماء وما المقصود بالثلاث تغطيسات؟". كما يقول أيضاً عن هذا الجزء من الطقس: "نحن ندفن فى الماء كما دفن المسيح فى القبر وعندما نغطس ثلاث مرات نعبر بذلك عن قبولنا لنعمة القيامة التى ظهرت بعد ثلاثة أيام".

أما القديس باسيليوس الكبير فيقول: "ثلاث غطسات ودعاء مساو لها فى العدد يتم سر المعمودية العظيم لكى يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المُعمدين بتسليم معرفة الله".

كذلك القديس أغسطينوس فيقول: "يوجد سران فى طريقة التعميد، الغطسات الثلاث هى رمز للإيمان بالثالوث القدوس الذى باسمه نعتمد، وكذلك رمز للدفن مع الرب ولقيامته فى اليوم الثالث لأننا ندفن مع المسيح فى المعمودية ونقوم معه بالإيمان".

كما يقول القديس جيروم معلقاً على طقس التغطيس: "إننا نغطس ثلاث مرات لكن سر الثالوث واحد، لأننا لا نعتمد باسماء ثلاثة آلهه بل باسم الإله الواحد ورغم أننا نغطس ثلاث مرات تحت الماء إلا نؤمن بمعمودية واحدة".

لذلك يعلمنا الآباء بهذا الشان، وقد تسلمناه منهم، أن ربنا فى قيامه بتدبير خلاصنا، نزل إلى الأرض لكى يقيم حياتنا. ونحن حينما نقبل العماد فإننا نفعل هذا حقيقة على صورة ربنا ومعلمنا ولكن لا ندفن فى الأرض لأن هذا سوف يكون مثوى جسدنا حينما نموت الموت الجسدى، الذى كتب على جميع البشر، ولكننا ندفن فى الماء وهو العنصر القريب إلى الأرض وبفعلنا هذا ثلاث مرات نتشبه بنعمة القيامة ونحن لا نفعل هذا السر بنوالنا السر فى صمت، ولكن الثلاثة أقانيم تحل علينا بالصلاة على مياه المعمودية الذى يكون مثل قبر، وبطن نولد منه ولادة ثانية من فوق.

ملاحظات على طقس سر المعمودية

1. لا يتم سر المعمودية إلا فى قداس إلهى، إلا إذا كانت هناك حالة ضرورية قصوى كمرض الطفل وإشرافه على الموت.
2. يعمد المولود الذكر بعد 40 يوم، والأنثى بعد 80 يوم، هذا ليس للطفل ولكن تطهيراً للأم. فالأنثى ضعف الذكر فى فترة العقوبة وذلك لأن حواء أغويت أولاً وأكلت من الشجرة.
3. يعمد الولد أولا ثم البنت لأن الرجل رأس المرأة وقبلهما ينزل الصليب جرن المعمودية.
4. إذا تحتم عماد الطفل قبل 40 أو 80 يوم يكون الإشبين له غير الأم.
5. سر المعمودية مرة واحدة لا يعاد على مثال موت المسيح وقيامته الذى تم مرة واحدة.
6. المعمودية لا تنذر ومن يتأخر عن الموعد المحدد يأخذ عقوبة كنسية.
7. لابد للكاهن المتمم للسر أن يكون صائم لأنه يستخدم الميرون.
8. إذ عمدت إمرأة حامل لا يلغى ذلك عماد الجنين.

9. بعد ملء جرن المعمودية وتقديس مائها لا يضاف أى ماء مرة أخرى لأنها لم تحضر الصلوات.

طقس تسريح ماء المعمودية

بعد الإنتهاء من العماد إذا أراد الكاهن تسريح ماء المعمودية يصب ماء على يديه فى جرن المعمودية مما علق به ميرون ثم يغسل ما حول المعمودية مما تناثر عليه من ماء المعمودية وما فيه من ميرون ويصبه فى المعمودية. وبعدها يصلى الكاهن صلاة التسريح الماء يقول فيها: "**...نسأل ونتضرع إليك أيها الصالح محب البشر أن تنقل هذا الماء إلى طبعه الأولى ليردد للأرض مرة أخرى...**". ثم يفتح السدادة الموجودة فى أسفل المعمودية فينزل الماء كله إلى الخزان المخصص له فى باطن الأرض. وبذلك ينتهى طقس المعمودية.

ملاحظات على طقس تسريح ماء المعمودية

1. ماء المعمودية المصلى عليه والذى فيه زيت ابو غلمسيس وزيت الغاليلاون وزيت الميرون، ليس من المستحب أن يظل مدة كبيرة فى المعمودية بدون تسريح حتى لا يتعفن أو يصبح لازجا بسبب الزيوت التى فيه. لذلك فالطريقة المثلة هى أن يصلى الكاهن قداس المعمودية عند كل عماد وتسرح المياه بعد العماد مباشرة. وفى الحالات القصوى لا يجب أن يظل الماء فى المعمودية لأكثر من ثلاثة أيام فقط.

2. من الخطأ إضافة مياه جديدة على ماء المعمودية بعد تقديسه تماماً مثلما لا نضيف أباركة على الكأس بعد التقديس والتحول.

3. يجب عند بناء المعمودية أن يراعى أن تكون عميقة وواسعة[1] حتى تتسع لعماد الكبار الذين يريدون الإنضمام إلى الكنيسة، أو بعض الأشخاص الذين أهمل أهلهم عمادهم فى الصغر واكتشفوا هم ذلك بعدما كبروا. كذلك الإنسان الذى شك فى عماده فى الصغر وقد مات والده ولا يوجد من أهله الباقين من يعرف حقيقة عماده من عدمه. **فى هذه الحالة يقول الكاهن عند عماده: "إذا لم تكن قد تعمدت "يا فلان" أعمدك الآن باسم الآب والابن والروح القدس".**

4. إذا مات الطفل اثناء عماده فيتم هدم المعمودية وبناء أخرى جديدة لأن المعمودية مكان لإعطاء حياة جديدة وليست مكانا للموت.

أما عن طقس معمودية الكبار فتكون كالتالى

إذا كان طالب العماد رجلاً فلا مشكلة، فبعد إتمام طقوس جحد الشيطان وتلاوة قانون الإيمان وقداس المعمودية يخرج الحاضرون من حجرة المعمودية فيخلع طالب العماد ملابسه كلها ويرتدى تونية بيضاء وينزل إلى جران المعمودية إلى رقبته ثم يأتى الكاهن ويغطس راسه فى ماء المعمودية ثلاث مرات قائلا: "**أعمدك" يا فلان "باسم الآب والابن والروح القدس".**

ثم يخرج الكاهن خارج الحجرة، ويصعد المُعمد من ماء المعمودية وينشف جسده بالفوطة المعده لذلك ثم يلبس ملابسه الداخلية ثم يأتى الكاهن ويمسحه ويدهنه بزيت الميرون 36 رشما كالعادة، ثم يرتدى بقية ملابسه المجهزة لهذه المناسبة السعيدة.

إما إذا كانت طالبة العماد امرأة، فبعد أن يصلى الكاهن قداس المعمودية ويقوم بطقوس جحد الشيطان وتلاوة الإعتراف وقانون الإيمان يغادر المكان ويعهد الشماسة أن تساعد تلك

---

1 وإذا لم تتسع المعمودية لعماد شخص كبير يمكن تدبير إناء كبير من الفخار أو البلاستيك حتى يمكن تغطيسه فيه حتى يغمره الماء من كل ناحية حسب طقس المعمودية بالتغطيس ثم يكسر هذا الإناء او يوقف لهذا الغرض فقط لأنه أصبح مقدسا ومدشنا بالصلوات وسكب الميرون فيه.

المرأة فى خلع ملابسها، مرتدية تونية بيضاء، ثم تنزل إلى جرن المعمودية وتغطس فيه إلى رقبتها، ثم يأتى الكاهن من الخارج . ومعه الشماسة . ويضع يديه على رأس المرأة، ويغطسها فى الماء ثلاث مرات وهو يقول: "**أعمدك (يا فلانة) باسم الآب والابن والروح القدس**". ثم يخرج من المكان فتنهض المرأة من المعمودية وتجفف جسدها بالفوطة المعدة وتلبس ملابسها الكاملة المعدة لهذه المناسبة **ثم يأتي الكاهن ويمارس سر المسحة المقدسة بأن يدهن بزيت الميرون أعضاء المرآة الظاهرة فقط مثل النافوخ (الرأس) والعينين والأذنين والمنخرين والفم ثم معصمي اليدين.**

الفصل العاشر

الخلافات العقائدية حول سر المعمودية

ممارسة سر المعمودية بالتغطيس

طبقا للتسليم الرسولى تمارس الكنيسة سر المعمودية بتغطيس المُعمَّد ثلاث مرات في الماء، باسم الآب والابن والروح القدس، إشارة إلى موت المسيح ودفنه وقيامته. فى ذلك يقول العلامة ترتليانوس: "حين نأتى إلى الماء نغطس ثلاث مرات". من ثم تكون هناك قاعدة أصيلة، وهى أن المعمودية يجب ألا تمارس إلا بالتغطيس وذلك يتضح من التالى:

(1) إن السيد المسيح له المجد الذى شرع هذا السر المقدس إعتمد ليصنع لنا مثالاٌ نحتذى به فيقول الإنجيل عن عماده: "فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ" (مت3:16) وفى ذلك برهان على أنه كان مغموراً بالماء ونازلاً فيه حتى إنه صعد منه.

(2) إن يوحنا المُعمَّدان والرسل الذين سلمونا وديعة الإيمان هكذا مارسوا العماد. فيوحنا عمد الذين أتوا إليه في نهر الأردن ولو جاز العماد لسكب الماء أو رشه لما كانت هناك حاجة للآتيان بهم إلى النهر بل كان قليل من الماء يكفى فى هذه الحالة.

(3) كذلك فيلبس عمد الخصى وزير كنداكة ملكة الحبشة بالتغطيس حيث جاء فى سفر الأعمال قوله: "فَأَمَرَ أَنْ تَقِفَ الْمَرْكَبَةُ فَنَزَلاَ كِلاَهُمَا إِلَى الْمَاءِ فِيلُبُّسُ وَالْخَصِيُّ فَعَمَّدَهُ. وَلَمَّا صَعِدَا مِنَ الْمَاءِ خَطَفَ رُوحُ الرَّبِّ فِيلُبُّسَ فَلَمْ يُبْصِرْهُ الْخَصِيُّ أَيْضاً" (أع8: 26ـ 39). فلو كان العماد بالرش جائزا لقنع فيلبس بقليل من الماء برشه على الخصى وهو فى المركبة دون أن يكفله النزول إلى الماء.

(4) المعمودية هى موت مع المسيح ودفنه "فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ" (رو6: 4) .." "مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ" (كو2: 13) وعملية الدفن لا يمكن أن تتم إلا بالتغطيس،

والخروج من جرن المعمودية يشير إلى القيامة مع المسيح بعد الموت، 3 مرات إشارة إلى 3 أيام فى قبر المسيح.

(5) كلمة معمودية معناها صبغة ولا يمكن أن تتم الصبغة إلا بالتغطيس.

(6) المعمودية ولادة ثانية والولادة خروج من جسم إلى جسم .. وتظهر فى المعمودية بخروج جسم الإنسان من جرن المعمودية.

(7) المعمودية غسل من الخطايا "بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تى3: 5)، "**قُمْ وَاعْتَمِدْ وَاغْسِلْ خَطَايَاكَ دَاعِياً بِاسْمِ الرَّبِّ**" **(أع22: 16) وعملية الغسل تحتاج إلى غمر بالماء.**

(8) نطلق على المعمودية، حيث يغطَّس المُعمد فى الماء.

(9) كل من ينظر إلى أبنية الكنائس القديمة يجد فيها جرنا للمعمودية يكفى لغطس الرجال وتشمل سلالم تأتى من الغرب إلى جرن المعمودية وسلالم أخرى يصعد عليها المُعمد متجها للشرق، وهذا دليل على أنها كانت بالتغطيس لأن عملية الرش لا تحتاج إلى جرن.

(10) الكنيسة تعلمنا أن الله واحد مثلث الأقانيم لأن المعمودية واحدة بثلاث غطسات.

(11) التشبيهات التى وردت فى الكتاب تدل على إتمامها بالتغطيس فى الفلك الـ 8 أنفس مدفونين داخل الفلك .. فى عبور البحر الأحمر: الماء يبل الأرض والسحابة من فوق وسوران من الماء عن اليمين واليسار.

(12) كذلك طبقا للتسليم الرسولى تمارس الكنيسة سر المعمودية بتغطيس المُعمَّد ثلاثا فى الماء باسم الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس إشارة إلى موت المسيح ودفنه وقيامته، فى ذلك يقول العلامة ترتليانوس: "حين نأتى إلى الماء نغطس ثلاث مرات". ويقول أيضاً: "لأننا نغطس لا مرة واحدة بل ثلاث مرات باسم كل واحد من الأقانيم".

كما أن القديس باسيليوس الكبير يذكر أنه: "بثلاث غطسات ودعاء مساو لها فى العدد يتم سر المعمودية العظيم لكى يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المُعمَّدين بتسليم معرفة الله" (فى

الروح لامفيلوشيوس فصل 15). كذلك ذهبى الفم فى تفسير (مقالة 25: 2).. وأمبروسيوس فى الأسرار (2: 7).. وايرونيموس ضد لوكيفروس (فصل 4) وغيرهم من الآباء.

(13) أما اقوال الآباء التى يتبين إتمام المعمودية بالتغطيس فإنها كثيرة جداً نذكر منها.

- القديس باسيليوس: "فبثلاث غطسات ودعاء مساو لها فى العدد يتم سر المعمودية العظيم حتى يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المُعمَّدين بتسليم معرفة الله".
- كذلك الشهيد يوستين يقول: "بعد ذلك يأتى بهم (الموعوظين) إلى حيث يوجد الماء وتعاد ولادتهم بأسلوب إعادة الولادة التى أعيدت به ولادتنا لأنهم يستحمون حينئذ فى الماء على اسم أبى الكل الإله السيد ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس".
- العلامة ترتليانوس: "لأننا لا نغطس مرة واحدة بل ثلاث مرات باسم كل واحد (الأقانيم) كما يقول أيضاً: "وحين نأتى إلى الماء نغطس ثلاث مرات".
- والقديس كيرلس الأورشليمى فى العظة الثالثة يقول: "كما أن الذى يدخل فى الماء ويعمد يُغمر بالمياه من كل جهة هكذا اعتمد تماما من الروح أيضاً ولكن الماء يغمر من الخارج وأما الروح فإنه يعمد النفس داخلياً بلا انقطاع".
- العلامة أكليمنضس الإسكندرى: "... يدعى هذا الفعل (العماد) بأسماء كثيرة، أعنى النعمة واستنارة وكمالاً ... وحميماً لأننا به نغسل من خطايانا" (المربى16 ف6: 226).
- القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات: "إن المعمودية تنقى من كل خطية وتغسل من الخطايا اللاحقة (عظة عن المعمودية).
- القديس يوحنا ذهبى الفم: "إن معمودية النعمة تطهر كل إنسان سواء كان فاسداً أو زانياً أو عابداً للأصنام أو غير ذلك".
- القديس أغسطينوس: "بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية سواء كانت من آدم الذى به أخطأ الجميع أو بفعلنا وقولنا لأننا نغتسل منها بالمعمودية" (رسالة 178: 28).

- كما يذكر المؤرخ البروتستانتى موسهيم: "إن التغطيس هو العادة التى استعملت فى طقس المعمودية فى الكنيسة الأولى وهو ما حدث بالنسبة للثلاثة الآلاف الذين آمنوا خلال عيد الخميسين فى أورشليم"

طقس التغطيس فى القوانين الكنسية:

أما قوانين الرسل فقد نصت على إتمام العماد المقدس بالتغطيس وليس بالرش ففى القانون الأول: "فليتعروا ويبدأ أن يعمد ومن بعد أن يعمد الرجال الكبار وأخيراً النساء ولا أحد ينزل بشئ غريب إلى الماء".

- فى القانون 25 من الدسقولية جاء فيه: "كل أسقف أو قس لا يتم ثلاث غطسات فى السر الواحد بل غطسة واحدة تعطى لموت الرب فليقطع".
- وفى القانون 34 وليكن التعميد فى مكان جار أو ماء يجرى إلى المغطس فإن كان ثمة ضرورة فليسكب فى المغطس الماء الذى يوجد وغطاسنا فى الماء هو أننا نشارك موت المسيح والصعود من الماء هو مثال انبعاثنا منه".

كذلك تبين احواض المعمودية لا تزال موجودة فى أقدام كنائس روما دليلاً على صحة التعليم القديم بخصوص إتمام المعمودية بالتغطيس، ولا يحق تحويل طقس المعمودية بالرش، إلا فى حالات المرض الشديد. لذلك فإن الكنيسة الأرثوذكسية لا تُعيد معمودية من اقتضى عمادهم بالرش لداعى المرض، ولكنها لا تسمح بإتمام السر إلا كما أمر به المسيح وكما سلمنا الآباء الرسل الأطهار.

الاعتماد باسم الثالوث الأقدس ومعنى الاعتماد بأسم المسيح

إن الكنيسة حسب تعليم الرب وامتثالا لأمره تتم سر المعمودية بتغطيس المُعمَّد ثلاث دفعات فى الماء باسم الثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس ونذكر أسماء الأقانيم الثلاثة

عند التغطيس وهذا واضح من أمر الرب الصريح القائل " فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت28: 19).

وقد ورد فى القوانين الرسولية: "إن كل أسقف أو قس لا يعمد حسب أمر الرب، باسم بالآب والابن والروح القدس ... يقطع". وعن ذلك يقول العلامة أوريجانوس: "معمودية الخلاص لا ينبغى أن تتمم على وجه آخر الا باسم الثالوث الاقدس أعنى باستدعاء الآب والابن والروح القدس. ويقول القديس كبريانوس: "إن الرب ذاته أوصى بأن نعتمد باسم الثالوث الاقدس بجملته.

ويقول القديس أثناسيوس الرسولى: "من يرفض هذا الاقنوم أو ذاك من الثالوث الاقدس، ويعتمد باسم الآب فقط، أو الابن وحده، أو الآب والابن خلا الروح القدس، فذاك لا يشترك بالسر أصلاً لأن الكمال والخلاص هما فى الثالوث"[1].

<u>ويتم العماد بهذه الصورة لأسباب كثيرة أهمها:</u>

1. يوضح لنا من أين تصدر هذه القوة الإلهية أى قوة سر العماد فبهذه الصورة نعلم أنها صادرة من الآب الذى أرسل ابنه ليموت من أجل البشر، والابن الذى رسم هذا السر الإلهى وسقاه بدمه الكريم وصيره مثمراً للنعمة فى النفوس وموجدها، ومن الروح القدس الذى يقدس النفوس من أدناس الخطيئة ويطهرها باطناً كما أن المياه تغسل الأجساد وتطهيرها ظاهراً.
2. ليعلم بذلك المُعمَّدون كافة أنهم يتقبلون سراً إلهياً لا طقساً بشرياً.
3. كذلك لئلا يفصل الله بنوع من الأنواع إذا اعتمد البعض من الناس باسم الآب والابن والروح القدس فقط، أو باسم الروح القدس فقط، فإنه يحدث من ذلك ان يقول البعض من الناس نحن للآب والبعض نحن للابن والبعض نحن للروح القدس.

[1] القديس أثناسيوس الرسولى: الروح القدس، الرسالة إلى سرابيون، ترجمة الدكتور موريس تاوضروس والدكتور نصحى عبد الشهيد.

ومعنى قول السيد المسيح لتلاميذه: "عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" أنه يقول لهم امضوا عمدوا الأمم والشعوب ولكن لا باسمكم بل باسم الآب والابن والروح القدس معترفين بذلك أن الذى تفعلونه ليس تفعلونه باسمكم بل باسم الإله الواحد المفهوم بثلاثة أقانيم إلهية وليس هو عمادكم بل هو عماد الله نفسه.

4. لا يصلح الاكتفاء بذكر اقنوم واحد وقت العماد بل يجب ذكر الثلاثة أقانيم لأن الأسرار المقدسة ليس لها قوة تقديس الأنفس وتطهيرها إلا من قبل رسمها من السيد المسيح ومن ثم إذا ترك أحد فى منحها شيئا من الأشياء المرسومة من السيد المسيح فيكون ذلك السر الممنوح باطلا وعديم القوة.

5. حيث إن السيد المسيح له المجد رسم هذا السر إلهى بدعوة الثلاثة أقانيم ملفوظة بكلام محسوس فينتج إذن أنه إذا نقص شيء من الثالوث الأقدس فى سر العماد نظراً إلى ترتيب السيد ورسمه فيكون ذلك العماد باطلاً لا محالة، وليس يكفى لمن يعُمد باسم المسيح أن ينوى ويقصد بهذا الاسم الأقنومين الآخرين أيضاً بل ملتزم ضرورة أن يلفظ بكلام محسوس الثلاث أقانيم أقنوماً أقنوماً حسب ترتيب الشارع نفسه له المجد، كما لا يجوز للمُعَمِد أن يقول أعمدك يا فلان باسم الثالوث فقط لأن لفظة الثالوث لا تدل على الأقانيم الثلاثة إلا دلالة ضمنية مع أن السيد اراد التصريح بذكر كل من الأقانيم كما تبين مما جاء فى "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت28: 19). وسبب ذلك هو أن تكميل السر لا يطلب مادة محسوسة فقط بل يطلب أيضاً صورة محسوسة وواضح أن دعوة الأقانيم الثلاثة الإلهية هى صورة العماد المحسوسة المرسومة ومن ثم ظهرت الأقانيم الثلاثة بعلامة محسوسة فى عماد ربنا الذى هو ينبوع تقديس اعتمادنا.

فى ذلك يقول القديس أثناسيوس: "من يرفض هذا الأقنوم أو ذاك من الثالوث الاقدس، ويعتمد باسم الآب فقط، أو الابن وحده، أو الآب والابن خلا الروح القدس، فذاك لا يشترك بالسر أصلاً لأن الكمال والخلاص هما فى الثالوث" (الرسالة إلى سرابيون).

كذلك القديس باسيليوس يقول: "إن الإيمان والمعمودية هما طريقان للخلاص متحدتان إحداهما بالأخرى غير منقسمتين لأن الإيمان يكمل المعمودية والمعمودية تؤيد بالإيمان وكلاهما يكمل بالأسماء نفسها لأننا كما نؤمن بآب وابن وروح قدس هكذا نعتمد أيضاً باسم الآب والابن والروح القدس".

نعم لقد ورد في الكتاب المقدس أن العماد كان باسم المسيح فقط حيث قال بطرس الرسول فى وعظه لليهود "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع2: 38) وقال لوقا عن أهل السامرة: "وَلكِنْ لَمَّا صَدَّقُوا فِيلُبُّسَ وَهُوَ يُبَشِّرُ بِالأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ وَبِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، اعْتَمَدُوا رِجَالاً وَنِسَاءً. وَسِيمُونُ أَيْضًا نَفْسُهُ آمَنَ. وَلَمَّا اعْتَمَدَ كَانَ يُلاَزِمُ فِيلُبُّسَ، وَإِذْ رَأَى آيَاتٍ وَقُوَّاتٍ عَظِيمَةً تُجْرَى انْدَهَشَ. وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ أَنَّ السَّامِرَةَ قَدْ قَبِلَتْ كَلِمَةَ اللهِ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، اللَّذَيْنِ لَمَّا نَزَلاَ صَلَّيَا لأَجْلِهِمْ لِكَيْ يَقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ" (أع8: 12–16)، وقال بولس الرسول إلى أهل أفسس: "فَلَمَّا سَمِعُوا اعْتَمَدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ" (أع19:5). غير أن ذلك لا يدل على أن الرسل كانوا يعُمدون باسم المسيح وحده بل يدل على أنهم كانوا يعُمدون بمعمودية المسيح لا معمودية يوحنا، وأن معمودية المسيح لم تكن لتمنح إلا باسم الثالوث الأقدس.

كما يذكر أن الآباء الرسل فى زمانهم زادوا على الصورة المرتبة من السيد له المجد بذكر اسم المُعمَّد مثل: **"أعمدك يا فلان باسم الآب والابن يسوع المسيح والروح القدس"** وذلك لكى يطبعوا فى قلوب المؤمنين الإيمان بهذا الاسم الجديد وتكريمه ومحبته، وذلك كما ورد فى (أع2: 38) حيث يقول: "فَقَالَ لَهُمْ بُطْرُسُ:«تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" يتساءل البعض هل المعمودية على اسم المسيح فقط كما ذُكر فى هذه الآية؟ أم على اسم "الآب والابن والروح القدس"؟ والإجابة أن المعمودية على اسم المسيح تتم بناء على وصية السيد المسيح "عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس".

والروح القدس يعطى للإنسان المُعمَّد خلقة جديدة فى المعمودية بالماء ولإتمام هذا الفعل الفائق للطبيعة يجب أن يتم طقس ممارسة السر عن طريق استخدام الصيغة الثالوثية التى تتلى أثناء التغطيس فى الماء. وعلى هذا الأساس فإن الطقس يكون فعالاً عندما ترتبط المعمودية بالاعتراف الصحيح بالثالوث القدوس. **فى هذا المعنى يقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات:** "... وقبل كل شئ وفوق كل شئ" "اِحْفَظِ الْوَدِيعَةَ الصَّالِحَةَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ السَّاكِنِ فِينَا" (2تي1: 17) وديعة الإيمان، التى بها نحيا ونعمل ونوجد والتى نشتهى أن تكون ثابتة فينا دائماً حيثما نوجد، وبها نستطيع أن نواجه كل النوائب، ونزدرى بكل شيء يتعلق به أهل العالم. وهذه الأمانة إنما هى الاعتراف بالآب والابن والروح القدس. هذه الأمانة هى التى استودعك إياها اليوم أيها المُعمَّد، بهذه الأمانة أعمدك وأرفعك إلى أعلى. هذه هى التى أعطيك إياها لكى تشترك فيها ولكى تحميك كل أيام حياتك، الإلوهة الواحدة والقدرة الواحدة الموجودة فى وحدة تامة فى ثلاثة أقانيم، والحاوية هذه الأقانيم الثلاثة فى بساطة اللاهوت بغير تشويش، بلا تفاوت ولا زيادة ولا نقصان ولا علو ولا انخفاض { فيما بين الأقانيم} بل بمساواة تامة من جميع الوجوه".

عندما يتحدث القديس غريغوريوس عن ضرورة استدعاء الثالوث القدوس فى المعمودية، فإنه يهدف إلى إيجاد رابطة بين تركيب السر (من الناحية الطقسية والروحية) مع تركيب الطبيعية الإنسانية: فكما أن الإنسان يتركب من جزأين، مرئى جسدانى، وآخر غير مرئى غير جسدانى، هكذا أيضاً بالنسبة للمعمودية فما يحدث من غسل للجسد. بالماء هو إشارة إلى الحقيقة الداخلية، أى تطهير الروح القدس للنفس من كل الخطايا.

كذلك محو الخطية يرتبط بمفهوم الخلقة الجديدة للإنسان. فعندما تُفهم الخطية على أنها ظلمة فطبقا لذلك يكون محو الخطية ليس شيء آخر سوى الانتصار على الظلمة، ومن ثّم نقول إن الظلمة هى نقص فى النور، وبحسب تعاليم القديس غريغوريوس نجد أن ظلمة الخطية تطرد من خلال نور النعمة الإلهية. لذلك يحذر الموعوظين من تأجيل المعمودية إلى ساعة الانتقال من هذا العالم فيقول: "تقبل العطية السماوية باحتفال، لا بنوح ورثاء، أى ساعة الموت". تاجر

بالوزنة ولا تطمرها. اهتم بأن يكون هناك وقت ولو قليل بين معموديتك وموتك، وعندئذ لا تنال الموهبة فقط، بل يبقى لك وقت تُظهر فيه شكرك بعرفانك للصنيع الإلهى، وعندئذ لا ننجو فقط من النار، بل ترث المجد والكرامة والتى يهبك إياها العمل مع معطيات الموهبة التى تتقبلها (أى المعمودية). لأنه بالنسبة لصغار النفوس فإنه لأمر عظيم لديهم أن ينجوا من العذاب فقط، وأما كبار النفوس فيسعون أيضاً لبلوغ المكافأة".

كما أن القديس غريغوريوس (فى الفصل السابع من العظة 40) يستعرض عمل المعمودية السرى لغفران الخطايا، وفى هذا لا يقدم لنا شيئاً جديداً ولكنه يصف الخلاص من وجهة نظر أخرى، حيث يرى أن خطية الإنسان تجعله يبتعد تماماً عن الله ويشير إلى أن عدم خطأ الملائكة ناتج عن قربهم من الله، فالعصمة من الخطيئة هى قطعاً، خاصة بالله وبطبيعته الأزلية غير المركبة (لأن البساطة هادئة وليست معرضة للانقسام)، كما أنها أيضاَ خاصة بالطبيعة الملائكية، أو على الأقل أن الطبيعة الملائكية هى قريبة جداً من العصمة بسبب قربها من الله، أما إمكانية الخطأ فهذا أمر بشرى خاص بطبيعة الإنسان الأرضية المركبة. ولهذا السبب رأى الله ألاّ يدع الإنسان بدون معونة وألاّ يهمله وهو فى خطر الانفصال عنه، بل مثلما أتى به من العدم إلى الوجود، هكذا أعاد خلقته، وهى خلقة أكثر سمواً من الخلقة الأولى. هذه الخلقة هى ختم وعلامة بالنسبة للصغار. أما الناضجين فى السن فهى نعمة واستعادة للصورة؛ [فلنقطع ما بقى من طريق العمر ممتلئين قوة وعزماً حتى نبلغ إلى محطة الراحة بعد عناء السفر الطويل. هذه هى إذن نعمة المعمودية وقوتها. ماؤها هنا ليس طوفاناً يغرقنا كما حدث قديماً، بل ماءً مقدساً يحقق التطهير الكامل من الخطية لكل واحد منا، والغسل الكامل من كل حمأة ولطخات علقت بنا من الشر والخطيئة].

6. عن سكنى الروح القدس في المُعمَّد، يتحدث القديس غريغوريوس (فى العظة 40) عن فاعلية المعمودية بالنسبة للإنسان المُعمَّد، لكنه لم يقل شيئاً عن سكنى الروح القدس في المُعمَّد بالرغم من أن القديس بولس الرسول أشار إلى أن المُعمَّد هو هيكل الله والروح القدس (1كو3: 16؛ 2: 19)، (2كو6: 16)، (أف2: 21)، ولكنه تكلم فى الفقرة الثالثة عن اتباع الإنسان

المُعمَّد للروح القدس والشركة مع اللوغوس: [فالاستنارة (المعمودية) هى ضياء النفوس وبهاؤها، وتغيير الحياة .. المعمودية هى مساعدة ضعفنا .. واتباع الروح القدس، وشركتنا مع الابن].

كما أوضح القديس غريغوريوس (فى الفقرة 35 من العظة 40) كيف أن تطهير المُعمَّد يهيج حسد الشيطان، لذلك على المؤمن أن يهتم بحفظ المعمودية، فربما نجد هنا إشارة لمفهوم سكنى الروح القدس. لأنه فى المعمودية يُطرد الروح الشرير من المُعمَّد، وحيث إن الروح الشرير لا يطيق عملية الطرد هذه، فيعود ثانية للمنزل الذى خرج منه فيجد المسيح فى هذا المسكن الذى تركه، وهكذا تفشل محاولته لمهاجمة هذا المسكن مرة أخرى، ولكن عندما يكون مسكن المُعمَّد مزيناً للشيطان بخلوه من الأعمال الصالحة ومستعداً لقبول اللذات فحينئذ ينفذ الروح الشرير فيه سريعاً. من ثم نجد أن القديس غريغوريوس قد استوحى هذا التعليم مما ذُكر على لسان المخلص فى (مت12: 43–44) " إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، يَطْلُبُ رَاحَةً وَلاَ يَجِدُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيَأْتِي وَيَجِدُهُ فَارِغًا مَكْنُوسًا مُزَيَّنًا"، وأيضاً (لو11: 24–26) "مَتَى خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ، يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ يَطْلُبُ رَاحَةً، وَإِذْ لاَ يَجِدُ يَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيَأْتِي وَيَجِدُهُ مَكْنُوسًا مُزَيَّنًا. ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَأْخُذُ سَبْعَةَ أَرْوَاحٍ أُخَرَ أَشَرَّ مِنْهُ، فَتَدْخُلُ وَتَسْكُنُ هُنَاكَ، فَتَصِيرُ أَوَاخِرُ ذلِكَ الإِنْسَانِ أَشَرَّ مِنْ أَوَائِلِهِ!".

من هنا يمكننا أن نجد أيضاً هذا التعليم فى (الفقرة 10 من العظة 39) حيث استعرض فيها القديس غريغوريوس النازينزى الفكرة الشرقية الأصلية، وهى أن الإنسان إما أن يسكن فيه الله أو الروح الشرير. فعندما تتزين النفس البشرية بالفضائل، يعنى أنها تتجنب الشر وتبتعد عنه، وبناءً على ذلك فإن من يفعل الصلاح يستوطن المسيح فيه. فيقول: "إن الكلمة (اللوغوس) مخيف لكل من هم بطبيعتهم غير مستحقين. لكنه بمحبته للبشر، أَهَّلَ الذين استعدوا بالنقاوة وطرودا الأرواح الشريرة من نفوسهم (بالمعمودية)، وزينوها بالمعرفة (الصافية). ليكونوا مواضع سكنى له. فعندنا نحمى ذواتنا ونجعلها أرضاً مفلحة، ونزرع بذار الصلاح والجود، كما يقول

سليمان الحكيم "فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ احْفَظْ قَلْبَكَ، لأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ" (ام4: 23)، وداود "لأَنَّهُمْ تَآمَرُوا بِالْقَلْبِ مَعًا. عَلَيْكَ تَعَاهَدُوا عَهْدًا. خِيَامُ أَدُومَ وَالإِسْمَاعِيلِيِّينَ، مُوآبُ وَالْهَاجَرِيُّونَ" (مز 83: 5، 6)، "بَنَاتُ آوَى أَيْضًا أَخْرَجَتْ أَطْبَاءَهَا، أَرْضَعَتْ أَجْرَاءَهَا. أَمَّا بِنْتُ شَعْبِي فَجَافِيَةٌ كَالنَّعَامِ فِي الْبَرِّيَّةِ" (إر4: 3)، فإن ذواتنا تستنير بنور المعرفة، ويمكننا بعد ذلك أن نتكلم عن حكمة الله المختفية فى أعماق السر، ونصير نوراً للآخرين"

كما توجد مواضع أخرى يشرح فيها القديس غريغوريوس مفهوم الخليقة الجديدة للمُعمَّد بواسطة الثالوث القدوس، حيث إن الآب والابن يشاركان مع الروح القدس فى الخليقة الجديدة التى تحدث للإنسان بالمعمودية.

أما ما ورد فى الإنجيل من العبارات التى تروى عن المعمودية باسم المسيح، أو فى المسيح يسوع (أع2: 38؛ 8: 16؛ 10: 48؛ 19: 20) فلا يقصد منها نفى العماد باسم الثالوث الأقدس بل المعنى فى ذلك أننا نعتمد بالمعمودية التى أسسها ورسمها ربنا يسوع المسيح. وقد قال فى ذلك القديس أفلوجيوس: "إن الاعتماد بيسوع المسيح هو الاعتماد حسب وصية يسوع المسيح وتسليمه الصريح أعنى باسم الآب والابن والروح القدس". وقال القديس باسيليوس: "لا يعثرن أحدا كلام الرسول حيث يسكت أحياناً عن ذكر اسم الآب والروح القدس فى المعمودية، ولا يظن لهذا السبب أن استدعاء الأسماء أمر لا يجب ملاحظته، لأنه يقول أيها الذين اعتمدتم بالمسيح .. "أَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ" (غلا3: 27)، وأيضاً " أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ" (رو6:3). فذكر المسيح هو اعتراف بالجميع لأن هذا الاسم المقدس يدل على الإله الذى مَسح، والابن الذى مُسح، والمسحة وهى الروح القدس، كما يقول بطرس الرسول: "يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس" (فى الروح القدس فصل 15). فالمؤمن يغطس فى مياه المعمودية ثلاث غطسات بعدد الأيام التى قضاها السيد المسيح فى القبر مدفوناً كإنسان.

وحدة المعمودية وعدم إعادتها

تعترف وتعلم الكنيسة طبقاً لتعليم الرب ورسله بأن المعمودية واحدة، ولا تعاد مرة ثانية. ولذلك قرر قانون الإيمان: "نعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا" ... وتعنى بذلك عدم جواز إعادتها ثانية متى تمت، وذلك لسببين هما:

أولاً: إن المعمودية ولادة روحية، فكما أن الإنسان لا يولد جسدياً إلا مرة واحدة، هكذا يجب أن تكون ولادته الروحية مرة واحدة، وكما أن الإنسان بميلاده الجسدى يأخذ صورة وهيئة خاصة يبقى عليها مدى حياته، هكذا فى ميلاده الروحى يأخذ رسماً وختماً لا يمحى.

ثانياً: المعمودية هى مثال موت المسيح ودفنه وقيامته. فكما أن المسيح مات مرة واحدة مقدماً ذاته كفارة أبدية "فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ. عَالِمِينَ هذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ، كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا لِلْخَطِيَّةِ " (رو6: 4–6)، (عب6: 4؛ 7: 27؛ 9: 12؛ 10:10) "وَكَمَا وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ" (عب9: 27) هكذا لا يجوز أن تعاد المعمودية مرة ثانية.

"أنه ختم لا يمحى وختم لا ينكسر" (أوامر الرسل ك3 فصل 16) "وأنه ختم الله، وكما خلق الإنسان الأول على صورة الله ومثاله هكذا الذى يتبع الروح القدس يختم منه ويأخذ صورة الخالق" "الَّذِي فِيهِ أَيْضًا أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ" (ايرونيموس على رسالة أفسس1 :13).

والقديس اغسطينوس يقول: "إن السمة السيدية لا تمحى البتة عن الذين نقتبلهم ولا نعمدهم ثانية" (رسالة 185 إلى بونيفاتيوس فصل 13).

يقول العلامه ترتليانوس: "لا يجوز أن تعاد المعمودية". كما يقول القديس يوحنا ذهبى الفم: "قد دفنا معه بالمعمودية للموت، وكما أنه غير ممكن أن يصلب المسيح مرة ثانية، هكذا

لا يقدر من قد اعتمد مرة أن يقبل معمودية ثانية" (مقالة 11 :3 على رسالة العبرانيين). ويقول القديس افرآم السريانى: "إن الرب أوصى تلاميذه أن ينقوا بمياه المعمودية خطايا الطبيعة البشرية مرة واحدة" (كتاب الإيمان 4 :9).

بعض نقاط خلاف بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، حول سر المعمودية

من هذه النقاط ما يلى:

أولاً: الكنيسة الكاثوليكية تمارس المعمودية عن طريق السكب أو الرش.

ثانياً: الكنيسة الكاثوليكية توصى بتعميد الجنين فى بطن امه.

ثالثاً: الكنيسة الكاثوليكية تقبل بمعمودية الطوائف.

رابعاً: الكنيسة الكاثوليكية تعترف بالمعمودية التى يجريها الهراطقة والوثنين.

خامساً: هل تقبل كنيستنا الأرثوذكسية معمودية الكنيسة الكاثوليكية؟!.

أولاً: الكنيسة الكاثوليكية تمارس المعمودية عن طريق السكب أو الرش.

أساس ممارسة سر المعمودية هو التغطيس، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية أدخلت ممارسة الطقس بالرش أكثر من التغطيس – من وجهة نظر الكاثوليكية – للأسباب التالية، فيقول الأخوة الكاثوليك:

1. المحافظة على الحشمة المسيحية خاصة إذا كان الشخص المعمد من النساء، وفى سن الصبا وخصوصاً بعد أن ألغيت فى الكنيسة خدمة النساء الشماسات.
2. تسهيل منح العماد.
3. منع الخطر المعرض له الطفل المولود حديثا إذا عمد بالتغطيس ثلاثا فى البلاد الباردة.
4. الأشخاص المراد عمادهم قد يكونوا مبتلين بأمراض لا تسنح مطلقاً أن يعمدوا بالتغطيس.

5. قد يمنح العماد في أماكن ليس فيها ماء كاف للتغطيس. فالقديس بطرس الرسول عمد فى اليوم الأول لحلول الروح القدس ثلاثة آلاف نفس، فلو لم يعمدهم بالرش فكيف كان يعمد بالتغطيس؟!.

6. ورد فى كتاب تعليم الرسل الاثني عشر ما نصه: (عمدوا باسم الاب والابن والروح القدس فى ماء حي وإن لم يكن عندك ماء حي فعمد بماء آخر، وإن لم تقدر فى ماء بارد ففى (ماء) حام، وإن لم يكن عندك ما يكفي من إحداهما فاسكب على الرأس ثلاث مرات باسم الاب والابن والروح القدس).

رأى الكنيسة الأرثوذكسية فى هذا الأمر

1. بالنسبة لعماد النساء في سن الصبا فإنهن يرتدين ملابس بيضاء، ويغطسن في المعمودية ثلاث مرات ويدهن بزيت الميرون في الاماكن الظاهرة بالجسد، وبذلك يبعد الأب الكاهن عن العثرة.
2. في البلاد الباردة يمكن تدفئة مياه المعمودية وهذه التدفئة لا تبطل الطقس. أما الذين لا تسمح حالتهم بقبول المعمودية بالتغطيس فقد أجازت الكنيسة عمادهم بالسكب أو الرش وهذا هو الاستثناء الذي حولته الكنيسة الكاثوليكية قاعدة عامة، وهذا الاستثناء دافع عنه الشهيد كبريانوس في الرسالة رقم 76 قائلاً: "أن سر المعمودية لا يعدم قوته إذا أتم عند الضرورة بالرش ولا حاجة بعد ذلك إلى إعادة التعميد".
3. أيضاً في حالة الضرورة القصوى للعماد وفي حالة عدم توفير ماء كاف مثل عماد مسجون في سجنه فيجوز العماد بالرش وهذا ما أشار إليه كتاب تعاليم الرسل وهذا أيضا استثناء وليس قاعدة عامة.
4. أما عن عماد ثلاثة آلاف نفس، فأن القديس بطرس لم يعمدهم بمفرده بل كان معه بقية التلاميذ الاثني عشر والرسل السبعين وجميعهم نالوا رتبة الكهنوت. وبذلك يخص كل منهم نحو 37 نفس، وهذا ليس بالعدد الكثير والمياه كانت متوفرة في أورشليم، فما المانع من عمادهم بالتغطيس؟!.

5. من شهادات الأخوة الكاثوليك علي ممارسة المعمودية بالتغطيس نذكر ما يلي:

❖ جاء في لاهوت أنطونين جـ2 ص 162: "أعلم أنه حيث توجد عادة التعميد بالغطسات الثلاث التي استمرت في الكنيسة اللاتينية إلى الجيل ألـ13 فمن يتركها بدون ضرورة فأنه يخطئ ضد وصية الكنيسة كأنه لم يحفظ طقس كنيسته، ولكن يجب أن تصير الغطسات الثلاث هكذا حتي أن المعمد يغطس علي دعوة كل أقنوم إلهي غطسه واحدة".

❖ يقول الاب الفاضل سيداروس اليسوعي: "يغطس المعمدون في الماء كي يدفنوا بخطاياهم فيها فيقومون لحياة جديدة وكان المعمدون قديما ينزلون عراة في جرن المعمودية .. وعندما يغطس المعمدون في الماء أنهم يتجاوزون الموت الذى يستوجبونه من جراء خطاياهم .. وللتعبير عن ذلك كانت الكنيسة القديمة تختار للمعمودية أماكن تتميز بغزارة المياه، بمياه تنبع من ينبوع حي رمزاً للحياة الأبدية التي تنبع من المعمودية وتفيض علي حياة المعمدين اليومية كي يحيوا معموديتهم .. ويعبر راعي هرماس في القرن الثاني الميلادي عن هذه الرمزية بقوله ينزلون في الماء أمواتاً ويصعدون منه أحياء".

❖ كما يقول أيضاً الأب فاضل سيداروس: "نذكر أن الكلمة اليونانية للدلالة على المعمودية هي Baptisma أى الغطس وفي بداية المسيحية كانت الاماكن المخصصة للمعمودية بجوار الأنهار أو البحار أو الينابيع حتى يتسنى للمعمدين الغطس في المياه، أمرهم أمر يسوع نفسه في نهر الأردن (الإرائيات) أى خازن ملكة الحبشة (أع8: 36–38). ويتم التغطيس ثلاث مرات تذكيراً بالأيام الثلاثة التي قضاها يسوع في القبر ليخرج قائماً منه، فالمعمدون يموتون عن خطاياهم مع المسيح لحياة جديدة، وفى الغرب منذ القرن الرابع كانت في داخل أجران المعمودية في الكاتدرائيات ينزل عليها المعمدون للغطس وأخرى ليصعدوا منها، الأولى موجهة نحو الغرب إشارة إلى حالة الخطيئة والثانية ناحية الشرق إلى نور المسيح .. أما الشرق فقد احتفظ دائما بالغطس (للبالغين) والتغطيس (للأطفال) حفاظا منه علي عمق رمزية هذه الحركة – من موت وقيامة – وتمسكا بما فعله يسوع نفسه، وتأكيداً على ما يعنيه لفظ المعمودية اليونانى، وعند الكاثوليك عامة يجوز استخدام إحدى الطرق الثلاث الغطس والتغطيس أو

السكب أو الرش، وقد جاز المجمع التريدانتينى (1545– 1563) الطرق الثلاث، ونحن نعلم أن الشرقيين منهم يمارسون تغطيس الأطفال".

❖ جاء في قوانين الكنائس الشرقية علي الرتبة الطقسية ان تكون كاملة وبالتغطيس .. إن العديد من الكتب الليتورجية يلحظ عادة منح سر المعمودية بالتغطيس الثلاثي، أنه لعرف ذو مغزى سامي التعبير حوفظ عليه طويلاً في تقليد الكنائس الشرقية حتي في الوقت الحاضر، ويشجع على استخدامه الآن في كنيسة الغرب (راجع مثلا الحق القانوني الكنسي ق854) بالرغم من أنه غالباً ما يستغنى عنه لأسباب تسهل الراحة علي السلطات المختصة، إذا أن نسعى إعادة رتبته التغطيس الثلاثي وذلك بفطنة ولكن أيضاً بغيرة.

ثانياً" الكنيسة الكاثوليكية توصي بتعميد الجنين في بطن أمه.

اعتماداً على الأية: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16)، أوصت الكنيسة الكاثوليكية بعماد الجنين في بطن أمه عن طريق توصيل أنبوبة أو حقنة داخل رحم الأم بشرط ان تصل المياه إلى جسم الطفل. وقد جاء في كتاب مختصر اللاهوت الأدبى الكاثوليكى لهيربرجون تحت رقم 465: "ويجوز أن يعمد الولد في بطن أمه بحلول ماء تلافيا لمرض ممكن". وجاء تحت رقم 467: "يجب أن يمس الماء المعمود (المعتمد) لذلك فالعماد باطل إذا مس الماء ثيابه فقط أو رحم الوالدة وتوابعه عند تعميد طفل في حشي أمه". كما ورد تحت رقم 478: "... إذا لم يظهر أى جزء من جسم الجنين وأمكن أن تصل إليه لا إلى غشاء الرحم فقط بواسطة الحقنة فعليك ان تعمده، وإذا توفيت الوالدة قبل ولادة الطفل عليك والإلزام ثقيل بحكم المحبة أن تهتم بأمر عماده إن أملت أنه حي".

هنا نقول رغم أن الكنيسة الأولى أدركت أهمية المعمودية للخلاص لكنها لم تمارس مثل هذه الأمور لأنها تعلم تماماً أن هذه الآية تنطبق فقط على الأحياء الذين نزلوا من بطون أمهاتهم إلى أرض الشقاء ... وهنا تعجب فى أن هناك من يمنعون التغطيس في العماد منعا للإحراج الذي يقع فيه الكاهن الكاثوليكي المتبتل عند عماد النسوة رغم أن كل منهن ترتدى جلباباً

أبيض، ويسمحون لهذا الكاهن أن يمارس عملية غريبة وكأنه طبيب لأمراض النساء وكيف يمكن عملية كهذه؟!. كذلك ما النتيجة لو أن حقنة المياه أصابت عين الطفل أو جمجمته الضعيفة؟!. أما عماد الجنين في بطن أمه التي لفظت أنفاسها الأخيرة فهو عملية تفوق الوصف والخيال وتدخل تحت بند التشهير بالجثة. **في ذلك يقول القانون السادس من قوانين مجمع قيصرية الجديدة س 375م:** "والمرأة الوثنية الحبلى تستنير بالمعمودية" (متى آمنت ومتى أرادت ولكنها لا تشارك الطفل = الجنين في هذا الأمر).

ثالثاً: الكنيسة الكاثوليكية تقبل معمودية الطوائف

يقول الأب مكسيموس كابس فى كتابه لماذا نومن بالمطهر؟![1]: "فالمعمودية تصيرنا أبناءً لله مسيحيين لا غير، فلا علاقة للمعمودية بالطوائف فليس هي كاثوليكية ولا أرثوذكسية ولا بروتستانتية ولكنها معمودية واحدة للخلاص وتصيرنا أعضاء في ملكوت الله الذي هو الكنيسة الجامعة أما الخلافات العقائدية فلا شأن لها بالمعمودية".

كما جاء بمجلة روزاليوسف عدد 3689 الصادر في 22 فبراير سنة 1999م تحت عنوان حرب الفتاوى بين الطوائف المسيحية[2]: (زواج الأرثوذكسي من كاثوليكية حرام) ويقول القمص إلياس يوسف سكرتير بطريرك الأقباط الكاثوليك: "الكنيسة الأرثوذكسية تعيد المعمودية لغير المنتمين إليها على اعتبار أنها سبق أن حرمت باقي الطوائف المسيحية، وهذا غير صحيح .. وإذا فرضنا أن قرار الحرمان واقعي وأنهم لديهم الحق المطلق فإنه طبقاً لنص الإنجيل وتراث الكنيسة فإن المعمودية تكون شرعية سواء كان الشخص الذي أجرى مراسيم العماد محروماً أو غير محروم لأنه لا يجرى مراسم العماد باسمه أو بصفته، ولكنها تتم باسم الثالوث القدوس كما قال السيد المسيح ذلك".

---

[1] الأب مكسيموس كابس فى رده على كتاب قداسة البابا شنودة الثالث ماذا نرفض المطهر؟!.

[2] مجلة روزاليوسف، عدد 3689، الصادر في 22 فبراير سنة 1999م.

هنا نقول أن المعمودية لا تكون واحدة إلا إذ كان الإيمان: "رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ" (أف 5:4) فهل إيمان الإخوة البروتستانت بالأسرار وفاعليتها هو هو إيمان الإخوة الكاثوليك، هو إيمان غير المسيحيين؟!. نحن نؤمن أن من شروط السر أن يتم بواسطة كاهن مشرطن أى استلم درجته الكهنوتية بوضع اليد بطريقة صحيحة بحيث لو تتبعنا التسلسل نصل إلى أحد الأباء الرسل الذين نالوا سلطان الكهنوت من الرب يسوع، بينما الإخوة البروتستانت لا يعترفون بكل هذا، ولا يعترفون أن المعمودية تهب مغفرة الخطايا الجدية والفعلية، وتهب الميلاد الجديد. وقد أوضح كتاب مختصر اللاهوت الأدبي الكاثوليكي أنه: "يلزم لإتمام السر أن تكون نية خادم السر مناسبة أى يؤمن بفاعلية سر المعمودية) .. فجاء تحت رقم 450 (لا يصح ايلاء السر بدون النية المناسبة لأن ايلاء السر هو فعل بشرى أما النية المشار إليها فيجب أولا: أن توجد فعلا عند ايلاء السر، فيعمل الخادم بوحيها كعلة إليه وإذا سبق لأحد أن نوى ايلاء سر ما ولكنه الآن لا يعمل بوحيها فعمله باطل".

كما نجد أنه بينما أقر بعض الإخوة الكاثوليك معمودية البروتستانت، فإن بعضاً منهم رفضوا الاعتراف بها فيقول الأب أنطون صالحانى اليسوعى: "إن هناك أحزابا كثيرة من البروتستانت لا يستعملون الصورة المفروضة من الرب بل يفسدونها ولهذا السبب لا يصلح العماد الذي تمنحه الفرق، فالكنيسة الكاثوليكية لا تجزم أن كل عماد يعطى من البروتستانت هو غير صحيح بل تلزم بفحص الطريقة التي يجرون عليها في العماد، فإذا ثبت بعد الفحص المدقق أنهم يحسنون إعطاء العماد باستعمال المادة (الماء العادي) والصورة (أنا أعمدكم باسم الاب والابن والروح القدس بالإضافة إلى ثلاث غطسات) المفروضتين، ويوضع النية (فلا تكون المعمودية فريضة أو علامة) يقبل عمادهم، أما إذا ثبت أنهم يفسدون الصورة ولا يستعملون الماء الطبيعي بل ماء الورد مثلاً أو ماء الزهر أو لا يضعون النية فالكنيسة الكاثوليكية توجب إعادة العماد".

لو كانت المعمودية لدى البروتستانت هى نفس المعمودية لدى الكاثوليك فعلام الصراع المرير بينهما على مدى العصور والأيام؟

رابعاً: تعترف الكنيسة الكاثوليكية بالمعمودية التي يجربها الهراطقة.

تعتقد الكنيسة الكاثوليكية دون سواها من كافة الكنائس المسيحية بأن المعمودية التي يجربها الهراطقة والوثنيون صحيحة مادامت تتم بنفس المادة (أى برش أو سكب الماء أو بالتغطيس) وتتم بنفس الصورة (أى النطق بقول: أنا أعمدك يا فلان باسم الآب والابن والروح القدس) فجاء في كتاب مختصر اللاهوت الأدبي الكاثوليكي تحت رقم 451: (يصح العماد الذي يمنحه طبيب يهودي يقصد أن تعمل ما تعمله الكنيسة والمسيحيون).. وتحت رقم 452: (لا يقتضى لصحة ايلاء السر أن يكون مانحه مؤمناً أو حالة النعمة وعليه فإذا عمد يهودي مراعياً ما تجب رعايته صح العماد وإن كان المعمد لا يؤمن بالعماد أو بالمسيح).. وتحت رقم 472 (لأى كان (أى شخص كان) وإن كان غير كاثوليكي أو غير مؤمن أن يمنح على وجه صحيح العماد غير الاحتفالى).

لقد ناقش الأب انطون صالحانى اليسوعى هذا الموضوع ودار محور حديثه حول سؤالين هما:
س1. هل المعمودية التى تتم على يد إنسان علماني تعتبر صحيحة؟.
س2. هل يشترط لصحة المعمودية أن يكون خادم السر ذو إيمان مستقيم؟.

عن السؤال الأول يقول: إن المعمودية التي يجريها العلماني في حالة الضرورة هي صحيحة وجائزة وإن أجراها فى حالة غير ضرورية فهي صحيحة ولكن غير جائزة (وهكذا العلماني إذا عمد بالرتبة المختصة بالكهنة أو في غير الضرورة يكون عمادة صحيحاً لكن غير جائز وهؤلاء آباء الكنيسة نراهم يميزون بكل صواب في إعطاء سر المعمودية صحة سر وجواز منحة فيعلمون أنه لا يجوز للعلماني أن يتعدى حقوق الكهنة في منح سر المعمودية ويقولون أنه يخطئ إذا منحه بدون ضرورة، لكنهم يؤكدون أن السر الممنوح على هذه الطريقة يكون

صحيحاً لا باطلاً وإن أخطأ الذي تعدى الحقوق أما إذا أعطى العلماني العماد لضرورة موجبة فيكون عملة خالياً أيضاً من الخطأ"[1].

أما كنيستنا الأرثوذكسية فإنها تعلمنا أن نتمسك بالعقيدة ونسلمها كما سلمت لنا فلا يحق للعلماني أن يجرى المعمودية ومن شروط إتمام السر أن يكون خادم السر كاهن مشرطن.

وحول السؤال الثاني تعرض الأب أنطون للشق التاريخي من المشكلة فقال (إن مسألة صحة أو عدم صحة العماد باعتبار استقامة أو عدم استقامة إيمان المعمد وديانته ليست حديثة في الكنيسة وقد أثارت في القرن الثالث والرابع للمسيح جدالاً عنيفاً تناظر فيه أشهر الأساقفة مثل القديس كبريانوس – جمع كبريانوس سنة 256 مجمعين محليين – وقرروا أن الأسرار التي تمنح خارج الكنيسة الجامعة لا يمكن أن تكون صحيحة، وبعد عقد هذين المجمعين أوفد كبريانوس إلى رومية أسقفين أصحبها بتحرير غاية في الرقة والاحترام إلى الحبر الروماني القديس اسطفانوس الأول (254–257) يخبره بما قرره الأساقفة ليثبته بسلطته فكان هذا الخبر كشرارة وقعت في غابة .. ساءه ما بلغة إياه الأسقفان المرسلان من طرف كبريانوس فلم يعطيهما تحية السلام وكتب إلى كبريانوس رسالة شديدة اللهجة بين فيها العادة القديمة قائلاً: (إذا عاد إليكم أحد من أية هرطقة كان فلا تبدعوا شيئا جديداً بل اتبعوا ما يسلم إليكم وهو أن تضعوا فقط عليه الأيدي للتوبة) وتهدد بالقطع كبريانوس وأساقفته إن لم يراعوا وأرسل أيضاً رسالة في المعنى نفسه إلى فرمليانوس والأساقفة الشرقيين من كيلكية وكبدوكية شركاء كبريانوس في رأيه"[2].

[1] أنطون صالحانى اليسوعى: الحقائق اللامعة في عقائد الكنيسة الجامعة ص**36**.

[2] أنطون صالحانى اليسوعى: الحقائق اللامعة في عقائد الكنيسة الجامعة ص**38**.

ثم انتهى الأب انطون إلى النتيجة التالية: "إن صحة السر لا تتوقف على إيمان خادم السر وبرارته جاز لنا أن نستنتج بكل صواب أن العماد يكون صحيحاً وإن أعطى من وثنى بشرط أن يمنحه كما تمنح الكنيسة وأن يقصد عمل ما تعمله"[1].

ثم يقول أيضاً: "... وعليه فإذا وجد شخص مؤمن بالمسيح ولم يكن بعد قد قبل العماد ووجد فى خطر الموت القريب ولم يكن حاضراً عنده إلا صديق غير مسيحي فالتمس منه المريض أن يعمده متمماً ما يعمله المسيحيون ويقصدونه فعماده هذا يكون صحيحاً هكذا القول عن طفل غير معمد وجد في حالة النزاع الأخير ولم يوجد لديه أحد من المسيحيين بل وجد أحد الوثنيين فيقدر هذا الوثني أن يتمم سر العماد المقدس على المذهب المسيحي ويكون العماد الممنوح منه صحيحاً"[2].

يستشهد الأب أنطون بأقوال بعض باباوات روما فيقول: (قال البابا نيقولاس الأول في جوابه سؤالات استفهمه عنها البلغار (ذكرتم أن كثيرين في بلادكم منحوا العماد من أحد اليهود وأنكم تجهلون أكان هذا مسيحياً أم غير مسيحي وتطلبون ما الذي يجب عمله في أمر هؤلاء. فأجاب البابا (إذا ثبت أنهم اعتمدوا باسم الثالوث الأقدس أو فقط باسم المسيح كما جاء في أعمال الرسل يجب أن لا تعاد معموديتهم).. وقال أيضاً البابا أوجانيوس الرابع في صورة الإيمان التي بعث بها إلى الأرمن (في وقت الضرورة ليس فقط الكاهن والشماس الإنجيلى لكن أيضاً الرجل العلماني والمرأة بل الوثني والهرطوقى يمكنهم أن يعمدوا بشرط أن يستعملوا الصورة التي تستعملها الكنيسة مع النية بأن يتمموا ما تعمله).. وقال القديس إيزيدوروس: (إن روح الله يمنح نعمة العماد وإن كان مانح العماد وثنياُ)[3].

كما أن المجمع اللاترانى الرابع وهو المجمع المسكونى الثاني عشر (سنة1215م) حدد أن (سر المعمودية الممنوح كما يجب يفيد للخلاص أيا كان مانحه). ورب معترض يقول: هل

---

[1] المرجع السابق، ص 39.
[2] المرجع السابق، ص 45.
[3] مجلة الحق القانوني ص482

يمكن الوثني عمل ما تعمله الكنيسة وهو لا يؤمن بالعماد ولزومه للخلاص ولا بالكنيسة ولا بالمسيح؟ أجيب أنه لا يطلب من الوثني أن يؤمن بهذه الأمور ليكون العماد الذي يمنحه صحيحاً بما يكفى أن يعلم أن المسيحيين يعتقدون ذلك ويقصد عمل ما يعملونه وما يطلب منه".

فى ذلك نقول: جاء في القانون 47 من قوانين الآباء الرسل كما أورده الأرشمندريت الكاثوليكي حنانيا إلياس كساب (أى أسقف أو قس عمد ثانية من كان قد اقتبل المعمودية الحقيقة أو لم يعتمد (لا يعيد المعمودية) من كان قد تدنس بمعمودية الكفرة فليسقط بما أنه مستهزئ بصليب الرب وموته ولم يميز بين الكهنة الحقيقيين والكهنة الدجالين .. كان بعض المسيحيين أثناء الاضطهاد أو انخداعا بتعاليم بعض المبتدعين فالذي يرتد من هؤلاء تائباً إلى الكنيسة لا يجوز إعادة معموديته لأنه كان قد عمد في الكنيسة الحقيقة قبل سقوطه والمعمودية واحدة لا يجوز إعادتها ولكنه يعاد تثبيته في الإيمان بالتوبة والصلاة والمسحة وأما من كان قد اعتمد عند المبتدعين فمعموديته باطلة وتجب إعادتها[1].

وقد تعرض الارشمندريت حنانيا إلياس للجانب التاريخي من هذه المشكلة بأمانة فقال: "عقد في مدينة قرطاجنة في أفريقيا ثلاثة مجامع مكانية للنظر في قضية إعادة المعمودية في عهد القديس كبريانوس الشهيد .. اجتمع المجمع الأول سنة 255م فحدد انه لا يمكن لإنسان أن يعمد خارج الكنيسة، فهي لا تعترف إلا بمعمودية واحدة والمرتدون إلى الكنيسة الجامعة من المبتدعين يجب أن يعمدوا ثانية، وإذا كان البعض قد انضموا إلى المبتدعين بعد معمودية أرثوذكسية فيجب قبولهم عند ارتدادهم دون معمودية .. وعقد المجمع الثاني في سنة 258م (أو سنة 25م حسي رأى مليـاس) واجتمع فيه 71 أسقف، وقد دعا كبريانوس هذا المجمع ليثبت الشريعة التي وضعها المجمع السابق بشأن إعادة المعمودية، فحدد ما يلى: إن كل معمودية قام بها المبتدعون باطلة وكل من يرتد بعد معمودية كهذه يجب أن يعمد معمودية

[1] الأرشمندريت إلياس حنان كساب: مجمع الشرع الكنسى، مرجع سابق، ص**860**.

أرثوذكسية ولا يعنى ذلك عماده ثانية بل هي المعمودية الواحدة إذا لم يسبق لهم أن نالوا المعمودية الحقيقة ... ثم عقد المجمع الثالث في السنة نفسها برئاسة كبريانوس حضره 184 أسقفا، والذي دعا إلى عقد هذا المجمع رسالة كان قد أرسلها المجمع الثاني المار ذكره إلى اسطفانوس بابا روما يشرح فيها ما تحدد بخصوص إعادة المعمودية، فعقد البابا اسطفانوس مجمعا في روما حدد فيه أن معمودية المبتدعين الذين يعمدون كما تعمد الكنيسة لا يجوز إعادتها ... فدعا القديس كبريانوس إلى عقد هذا المجمع الثالث ليثبت أن معمودية المبتدعين تعد باطلة فيجب تعميد المرتدين خلافا لما حدده البابا اسطفانوس. ونشب مثل هذا الخلاف بين البابا اسطفانوس والأساقفة في آسيا وكان قد كتب إليهم في أنهم يجب ألا يعيدوا المعمودية فعقدوا مجمعا في ايقونية في سنة 258م برئاسة القديس فرميليانوس أسقف قيصرية فارتأوا عدم قبول شئ من الأسرار التى يقوم بها المبتدعون لأنها باطلة بما فيها معموديتهم وسياستهم"[1].

ورغم أن أتباع بولس الساموساطى كانوا يعمدون باسم الآب والابن والروح القدس إلا أن الكنيسة رفضت معموديتهم فجاء في القانون 19 من قوانين مجمع نيقية: (إننا نحدد أن أتباع بولس الساموساطى اللاجئين إلى الكنيسة الجامعة يجب أن تعاد معموديتهم على كل حال .. وكان البولسيون كما يقول القديس اثناسيوس يذكرون اسم الآب والابن والروح القدس في إتمام سر المعمودية ولكنهم لم يكونوا يستعملون هذه الكلمات بمعناها الحقيقي ولذلك اعتبر المجمع والقديس اثناسيوس أن عمادتهم باطلة[2].

جاء رأى رسالة القديس كبريانوس أو قانون المجمع المكاني الثالث: (إننا نرى ونعتقد متيقنين انه لا يمكن لأحد أن يعمد خارج الكنيسة بمعنى انه ليس هناك إلا معمودية واحدة في الكنيسة المقدسة .. فالماء إذن يجب أن ينقى ويقدس بواسطة الكاهن لتغسل بالمعمودية فيه خطايا المستنير (المعمد) مصداقا لقول الرب بفم حزقيال النبي "واتضح عليكم ماءً فتطهرون" (حز36:25–26) ولكن كيف يستطيع من هو نفسه غير طاهر أن يطهر ويقدس الماء وهو

---

[1] المرجع السابق، ص **755- 756**.

2 الأرشمندريت إلياس حنان كساب: مجمع الشرع الكنسى، مرجع سابق، ص **93**.

خال من الروح القدس؟ وكيف يستطيع من لا يقدر أن يحرر نفسه من خطاياه وهو خارج الكنيسة أن يمنح آخر في تعميده غفران الخطايا؟ إن مغفرة الخطايا لا تمنح إلا في الكنيسة ولما لم يكن للمبتدعين كنيسة فيستحيل عليهم مغفرة الخطايا .. لابد للمعتمد أن يمسح للرب بمنحة مسحة الميرون المقدس وحصوله في داخلة نعمة المسيح أنا الذي ليس له كنيسة ولا مذبح فلا يستطيع أن يقدس الزيت .. وما نوع الصلاة التي يقدمها كاهن رجس خاطئ في المعمودية؟ ومن يستطيع أن يعطى ما ليس عنده؟ أو كيف يقدر أن يقوم بالأعمال الروحية من قد حرم نفسه من الروح القدس؟ من خدع وحمل على السير في طريق الضلال واغتسل خارجاً يجب أن يخلع عنه هذا الخطأ أيضاً بالمعمودية الحقيقة في الكنيسة، فقد وقع أثناء قدومه إلى الله – خطأ – على مجدف فيما كان يبحث عن كاهن .. من كان له أن يعمد فله أيضاً أن يعطى الروح القدس فهو ليس مع الروح القدس ولا يستطيع أن عمد من يأتى إليه ما دام كل شئ عندهم باطلاً وكاذباً فلا يجوز أن يعتبر شئ مما يقولون به مقبولا عندنا .. هل في وسع هؤلاء مقاومو الرب الدجالون أن يمنحوا نعمة المسيح"[1].

كما أورد الأرشمندريت جراسيموس مسرة، رسالة القديس فرمليانوس إلى كبريانوس بشأن اسطفانوس بابا روما الذي يصر على الاعتراف بمعمودية الهراطقة، فيصفه بالعتوة وانه يتمثل بيهوذا الخائن ونقتطف من هذه الرسالة الطويلة ما يلى: "لكن لنترك الآن ما عمله اسطفانوس لكي لا يكون ذر وقاحته داعيا لذكر أعظم لنا لقباحة ما فرط منه .. ليست معمودية في غير الكنيسة .. ظهر بغتة امرأة متجننة (بها أرواح شريرة) كانت تدعو نفسها نبيه حاملة روحاً، وكانت تصنع غرائب وعجائب وتدعى بأنها تحرك الأرض كلها، كانت تتظاهر بأنها زيادة على صنائعها تقدس وتتمم سر الشكر بدعاء جليل، وكانت تستعمل (في المعمودية) كلمات السؤال القانونية المعتادة (طقس جحد الشيطان والاعتراف بالمسيح) وتعمد كثيرين فظهر أنها لا تخالف قانون الكنيسة في شئ، فماذا تقول عن هذه المعمودية التي أعدها الشيطان واستعمل المرأة آلة له؟ ألعل اسطفانوس والموافقون لراية يقبلونها؟ سميا أنها لا تترك علامة

[1] الحقائق اللامعة في عقائد الكنيسة الجامعة، مرجع سابق، ص758-760.

الثالوث ولا السؤال القانوني الكنسي؟ ولكنه في الصحيح فعل من الشيطان. فعلينا من ثم أن نسأل الهراطقة ما قولهم في معموديتهم أجسدية هي أم روحية؟ فإنها إن كانت جسدية فلا فرق بينها وبين معمودية اليهود التي يستعملونها بمثابة حمام دارج يغسلون به أوساخهم، وان كانت روحية فكيف يمكن أن تكون معمودية روحية عند الذين ليس لهم الروح القدس؟ إن كانت عروس المسيح واحدة فمن الواضح إن الكنيسة الجامعة هي وحدها التي تلد أبناء الله لأنه ليست عرائس كثيرة للمسيح .. ما لم يكن اسطفانوس يعتقد أن الهراطقة تلد وتربى (أولاداً) والكنيسة تجمع المرميين (الأولاد المطروحين) وتربى الذين لم تلدهم كما لو كانوا أولادها فإنها لا تستطيع أما لأولاد غرباء .. وأما أعداء الكنيسة الواحدة الجامعة التى نحن بها واعاداؤنا نحن خلفاء الرسل الذين يباشرون ضدنا أعمالا كهنوتية غير مباحة ويصنعون مذابح رجسه فلا فرق بينهم وبين قورح وداثان وابيرام، ولكونهم متعدين على الكهنوت مثلهم سوف يعاقبون بعقابات مثل عقابهم لا يفلت منهم المشاركون آرائهم، أما أنا فلا استطيع أن أطيق حماقة اسطفانوس الواضحة بهذا الصدد .. لو كانت المعمودية خارجا باسم المسيح تستطيع إن تطهر الإنسان لكان وضع الايدى هناك باسم المسيح شرعا لكونه عمل باسم المسيح إننا لا نعرف غير كنيسة الله الواحدة، ولا نعتمد بغير معمودية الكنيسة المقدسة ولهذا السبب .. اجتمعنا معا عدد كثير من ايقونية وبحثنا في مثل هذه الأمور باجتهاد كثير وأخيراً حددنا أن المعمودية التي تقام خارج الكنيسة مرفوضة .. انك (يا اسطفانوس) أشنع من جميع الهراطقة .. اسطفانوس .. ويصنع شقاقا في الأخوية من أجل الهراطقة"[1].

أما الشهيد كبريانوس ففى رسالته إلى يومبيبيوس فإنه يصف البابا اسطفانوس بأنه (صديق الهرطقة وعدو المسيحيين) .. وفى رسالة إلى كونيدس يحذره من هذا البابا قائلاً: "انتبه من ضلاله باجتهاد في المحاماة عن الهرطقة ضد المسيحيين وضد كنيسة المسيح" (تاريخ

[1] جراسموس مسرة: تاريخ الانشقاق ج1 ص76ـ93.

الانشقاق ج1 ص94) .. وقد انتهى الأمر بالبابا اسطفانوس إلى حرم فرميليانوس وأساقفة كيليكية وغلاطية وأيضاً أساقفة أفريقيا"[1].

وظل الخلاف قائماً إلى أن تم حسمه فى المجمع المسكونى الأول بمدينة نيقية سنة325م، والمجمع المسكونى الثانى بمدينة القسطنطينية381م، حيث حدد كل منها أن المعمودية واحدة تتمها الكنيسة الواحدة أما معمودية الهراطقة فإنها بالاسم فقط ولكن بالفعل غير صحيحة لعدم ارتباطها بالاعتراف الصحيح بالثالوث القدوس[2].

ويقول الأب فاضل سيداروس اليسوعي: (فقد أثار كبريانوس (حوالى200–258م) أسقف قرطاجنة في إفريقيا الشمالية جدالاً حول ضرورة إعادة تعميد الهرطقة وذلك ما بين 255، 258م إذ كانت الشيع والبدع تتفاقم حينذاك، ويتلخص فكرة في إن المعمودية واحدة غير أن الكنيسة وحدها تعمد لأنها وحدها عروس المسيح التي بوسعها أن تلد لله أبناء وتقدسهم، وبالتالى إن لم يكن خادم السر من الكنيسة فهو لا يستطيع أن يقوم بما تقوم به الكنيسة فيجب إعادة المعمودية .. أما باسيليوس (329–379م) أسقف قيصرية فإنه ما بين 347، 375م رفض رفضاً مبدئياً إعادة تعميد المنشقين عن الكنيسة، ولكنه طالب بإعادة تعميد الهراطقة غير أنه بالفعل تبنى موقف كبريانوس، فنادى بإعادة تعميد الهراطقة والمنشقين) (سر المعمودية والتثبيت).

وجاء في مجموعة قوانين الكنائس الشرقية: (46– خادم سر المعمودية: خلافا لما يحصل في التقليد اللاتيني والذي كرره (الحق القانوني الكنسي) في القانون 861 البند (1) يحصر منح سر المعمودية العادي في جميع التقاليد الشرقية – في من البسوا نعمة الكهنوت، أى من الأساقفة والكهنة مقصيا الشمامسة الإنجليين .. فى حالة الضرورة ووفقا لما ورد في القانون 677 البند (2) يجوز ليس فقط للشمامسة الإنجيليين بل أيضاً للاكليريكيين الأعضاء في

[1] المرجع السابق، ج1، ص71-72.

[2] قانون19 من قوانين مجمع نيقية، وقانون7 ،8 من قوانين مجمع القسطنطينية.

مؤسسات الحياة المكرسة وأيضاً (لأى مؤمن مسيحي) إن يمنحوا سر المعمودية بوجه شرعي ولكن لا يحق ذلك (لأى شخص غير مسيحي) تحركه نية صالحة وفقا لما ورد في القانون 861 البند (2) من الحق القانون الكنسي للكنيسة اللاتينية[1].

ملاحظة: الكنيسة الكاثوليكية تسمح للأب الكاهن إقامة القداس من أجل شخص غير مؤمن أو هرطوقى، وتسمح له بتقاضي الأجر عن هذا ففي إجابة سؤال حول هذا الموضوع جاء: (يمكن تقديم القداس سراً مع قبول الحسنة من أجل الجميع مؤمنين وغير مؤمنين .. أحياء أو أمواتاً، على أن اللاهوتيين يرتابون فيما إذا كانت الثمرة التكفيرية تلحق غير المؤمنين ... بناء على المبادئ المعطاة في الجواب عن الأول جاز للأب إن يقدس لأجل الشخص غير الكاثوليكي ويأخذ حسنة لقاء قداسه سواء أكان هذا الشخص من غير المؤمنين أم من الهراطقة بشرط أن يكون التقديم قد تم سراً لا علناً) (فتاوى لاهوتية الأب نعمة مطر ص216-218).

خامساً: هل تقبل كنيستنا القبطية الأرثوذكسية معمودية الكنيسة الكاثوليكية؟

جاء بقرارات المجمع المقدس لكنيستنا القبطية في جلسة السبت 3- 6- 1990 ما يلي: هل نعمد الأقباط الكاثوليك؟. نعم لأن بيننا وبين الكاثوليك خلافات في العقيدة مثل: إنبثاق الروح القدس، والحبل بلا دنس، خلاص غير المؤمنين .. وجاء في نفس الجلسة: "بعد الاتفاق اللاهوتي حول الإيمان من الروم الأرثوذكس فكنائس الروم الأرثوذكس التي تقبل معموديتنا نقبل معموديتها، أما الكاثوليك فبيننا وبينهم خلافات كثيرة جوهرية ولا يمكننا قبول معموديتهم".

يقول المتنيح نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمي: "مازلنا في مرحلة الانفصال في شركة الأسرار المقدسة وبلغة أخرى Nointercomunian أى لا شركة فى الأسرار، وإننا منذ

[1] مجمع الكنائس الشرقية – توجيه لتطبيق المبادئ الليتورجية الواردة في مجموعة قوانين الكنائس الشرقية ص 68-69.

عام 450م أى منذ مجمع خلقيدونية الذي انشقت فيه أو انقسمت الكنيسة إلى كنيستين شرقية بزعامة كنيسة الإسكندرية في عهد البابا ديسقورس، وغربية برئاسة بابا روما، أمست الكنيستان دائرتين مغلقتين إحداهما عن الأخرى، ولا شركة بينهما فعمل الروح القدس في كل كنيسة يجعل الأسرار ذات فاعلية في دائرة كل كنيسة على حدة بدون شركة أو اتصال بين الدائرتين أو الكنيستين ... بناء على ذلك فلا يجوز لأُرثوذكسى أن يتناول الأسرار المقدسة في كنيسة كاثوليكية، ولا الكاثوليكي أن يتناول الأسرار في كنيسة أرثوذكسية".

الخلاصة أنه مع الاعتراف بأن الكنيسة الكاثوليكية كنيسة رسولية لكن ليس هناك اعتراف أو إقرار بأرثوذكسية الأسرار التي تتم في الكنيسة الكاثوليكية عندما ينتقل الكاثوليك إلى عضوية الكنيسة الأرثوذكسية.

وقد أورد القمص باسيلى فانوس وكيل عام بطريركية الأقباط الكاثوليك في مجلة الصلاح شهر نوفمبر سنة 1998م تعقيباً على قرار المجمع المقدس ورأى نيافة الأنبا غريغوريوس، معاتبا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وهو لم يعاتب رؤساء كنيسته الذين يقبلون معمودية يجريها رجل وثنى لا يعرف المسيح ولا يعترف بالمسيحية ولا يؤمن ولا يعتقد ولا يفهم.

أقوال الآباء عن المعمودية:

يقول القديس يوستينوس الشهيد: "يجب ان نفتش ونعرف من أى طريق يمكننا أن ننال صفح الخطايا، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها، ولنا في ذلك واحد فقط، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا، وهكذا أن نبتدئ أن نعيش بالقداسة[1].

أما القديس كيرلس الأورشليمى: "عظيمة هي المعمودية المعدة فداء عن المأسورين وصفحاً للأوزار، وموتاً للخطية، وولادة ثانية للنفس، وثوباً نيراً، وختماً مقدساً لا ينفك، ومركبة إلى السماء، وتعليم الفردوس، وعلة الملكوت، ومنحة التبني"[1].

[1] يوستينوس الشهيد: خطابة إلى تريفون فصل **44**.

كما أن القديس غريغوريوس النيسى: (فالمعمودية إذن تنقية من الخطايا ترك المأثم وعلة التجديد والولادة الثانية)[2].

ويقول أيضاً: "حينما تدخلون في الماء لا تجدون بعد ماءً بسيطاً، بل تنتظرون خلاصاً بالروح القدس، لأنكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا إلى الكمال. وهذا الكلام ليس كلامي بل كلام الرب يسوع نفسه، الذي له السلطة التامة في هذا السر، كما في كل سر غيره. وهو إن كان احد لا يولد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله الذي معناه لا أن تكون المعمودية بماء فقط، لأن الذي يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله ولا ينالها كاملة، كما أن الذي لم ينل ختم الماء مهما كان صالحاً بأعماله لا يستطيع إن يدخل ملكوت السموات. هذا الكلام صعب ولكنه ليس كلامي لأن الرب يسوع هكذا تكلم، وإليك البرهان في الكتاب، وأورد حادثة كرنيليوس وعماده، وختم كلامه بقوله: (أن بطرس عمدهم باسم الرب يسوع، فأعاد النفس بالإيمان لينال الجسد أيضاً النعمة بواسطة الماء"[3].

يذكر القديس أوغسطينوس: "إننا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية، سواء كانت من آدم الذي به أخطأ الجميع، أو بفعلنا وبقولنا لأننا نغسل منها بالمعمودية".

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم للموعوظين المرشحين للعماد: (إن الذين كانوا قبل عمادهم أسرى، فإنهم يتمتعون الآن ببهاء الحرية. وصاروا أعضاء الكنيسة سالكين في نور البر البهي، بعدما كانوا سائرين في فيافي الضلال الحالك وظلام الخطية القاتم. حقا أنهم الآن محررون، وليس ذلك فقط بل قديسون فأبرار فأبناء فورثة المسيح وارثون معه فأعضاء لجسده الطاهر، فهيا كل الروح القدس. فتأمل في العطايا الجزيلة والمواهب الثمينة التي يمنحها سر العماد. إن

---

[1] القديس كيرلس الأورشليمى: تعليم ابتدائي للموعوظين فصل**16**.

[2] القديس غريغوريوس النيسى: في معمودية المسيح.

[3] القديس غريغوريوس النيسى: عظة 2:3

كثيرين يظنون أنه يغفر الخطية فقط، وأما نحن فقد أحصينا له عشرة مفاعيل تجعل النفس في مركز سام ومقام جليل لا يوصف".

الفصل الحادى عشر

تسألات حول سر المعمودية

س. إن كانت المعمودية تجديداً، فلماذا نخطئ بعد المعمودية؟

المعمودية هى تجديد كما وردت في (رو6: 4) "فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ"، هى ليست عصمة. لكنها حياة جديدة وطبيعة جديدة كما قال الرسول بولس فى (تى3: 5) "لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ - خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" هذه الطبيعة لها قوة وقدرة على الحياة الروحية. ولكن لا عصمة لنا طالما نحن فى الجسد هنا فى فترة إختبار. ومازلنا فى حريتنا نعمل الخير أو الشر.

إن حياة التجديد التى أخذناها فى المعمودية لا تلغى نعمة الحرية التى لنا والتى لنا نحن بها على صورة الله ومثاله. أما العصمة أو إكليل البر ففناله فى الحياة الأخرى. (2تى4: 8). "وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ". فى ذلك يقول قداسة البابا شنودة الثالث: "لا يوجد إنسان معصوما وقد حل الروح القدس على داود وشمشون ولم يمنع الروح خطأهما".

س. هل تسرى مفاعيل المعمودية إذا كان الكاهن الذى يجريها سئ السيرة؟

يجب أن نتذكر أن إيماننا الأرثوذكسى هو أن النعم التى نأخذها من خلال الأسرار هى من الله وليست من الكاهن. فالكاهن هو وكيل لسرائر الله، وهو خادم لإتمام الأسرار، يمكن أن نمثله بساعى البريد الذى يحمل خطاباً مفرحاً سواء جميل الخلقة أو ردئ. فالكاهن كالزارع، فالزرع

ينمو سواء كان الزارع باراً أم خاطئاً. كذلك كوب الماء سواء زجاجاً أم معدن أم ذهب، فالماء هو هو لا يتغير بنوعية الكوب.

فى ذلك تأتى إجابة القديس غريغوريوس لتوضيح أن الكاهن هو أداة للروح القدس وهو يقوم بدور الوسيط فقط فى هذا العمل الخلاصى، ولكنه لا يمنحه من ذاته. لذلك يشدد على أنه يجب ألاّ يكون الكاهن مقطوعًا أو مفصولاً عن شركة الكنيسة. ثم ينتقل ليشير إلى فاعلية سر المعمودية هى واحدة فى كل المُعمدين، فلا يتعلق الأمر بشخص المُعمَّد ذاته سواء كان أسقفاً، كاهناً متبتلاً، كاهناً متزوجاً أو راهباً. وأعطى مثلاً على ذلك: إذا كان لدينا خاتمين أحدهما من ذهب والآخر من حديد وحفر على كليهما صورة الملك، فعندما نضغط بهما على الشمع فلا نجد أى اختلاف فى الصورتين المطبوعتين على الشمع، ولا نستطيع أن نميز فى الصورتين أيهما يخص الخاتم الذهبى وأيهما الحديدى، لأن هذا لا يكون واضحاً.

س. كيف خلص اللص دون معمودية؟

المعمودية ما هى إلا أنها موت مع السيد المسيح. فاللص نال المعمودية التى تعرف بمعمودية الدم كالشهداء الذين يستشهدون قبل عمادهم.

س. إن كانت المعمودية لازمة للخلاص فلماذا قال الرسولان بولس وسيلا لسجان فليبى (أع16: 32) "وَكَلَّمَاهُ وَجَمِيعَ مَنْ فِي بَيْتِهِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ "ولم يقل امن واعتمد؟

سجان فيلبى إنسان غير مؤمن فكان عليه أولاً أن يؤمن، ثم بعد ذلك يشرحا له باقى الأمور وهو ما حدث، فيقول سفر الأعمال: "وَكَلَّمَاهُ وَجَمِيعَ مَنْ فِي بَيْتِهِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ" (أع16: 32). كما يقول أيضاً: "وَاعْتَمَدَ فِي الْحَالِ هُوَ وَالَّذِينَ لَهُ أَجْمَعُونَ" (أع16: 33).

كما نضع أمامنا الآيات الباقية المكملة قول الرب: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16: 16). كما يقول القديس بطرس: "الَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ الآنَ، أَيِ الْمَعْمُودِيَّةُ. لاَ

إِزَالَةُ وَسَخِ الْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ اللهِ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (1بط3: 21)، "لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ - خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تى3: 5).

س. إن كانت المعمودية ضرورية، فهل كل أنبياء العهد القديم اعتمدوا؟

لاشك أنه لو كانت وصية المعمودية موجودة فى أيامهم لكان يلزمهم العماد. فالمعمودية هى موت مع المسيح ولم يكن السيد المسيح قد مات فى العهد القديم .. ولكن أنبياء العهد القديم مارسوا رموز المعمودية ما أمكنهم ممارسته فى أيامهم مثل الختان . عبور البحر الأحمر – ومارسوا الاحتفال بخروف الفصح الذى يرمز إلى دم المسيح. ولا يجوز أن نطالب أشخاصاً بشريعة لم تكن موجودة فى أيامهم.

س. هل الخلاص هو بالكلمة وليس بالماء؟

وهنا نقول هل قول الرسول عن الكنيسة (أف5: 26) "لكي .. بالكلمة" تعنى أن الغسل كان بالكلمة؟ أى الخلاص بالكلمة. وماذا عن باقى الآيات التى تدل على لزوم الكلمة للخلاص مثل: (1بط1: 23) "مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى، بِكَلِمَةِ اللهِ الْحَيَّةِ الْبَاقِيَةِ إِلَى الأَبَدِ". كما يقول القديس يعقوب "شَاءَ فَوَلَدَنَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلاَئِقِهِ" (يع1: 18) .. ولم يقل ولدنا بالمعمودية أو خلصنا بالمعمودية.

س. إذاً... ما أهمية الماء للخلاص؟

مادام الرب قال فى (مر16: 16) "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" إذا الإيمان يسبقه التعليم بالكلمة.، (رو10: 14) "فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلاَ كَارِزٍ". من هنا جاءت أهمية الكلمة. والكلمة أولاً ونتيجة لها يحدث الإيمان، ونتيجة الإيمان تتم المعمودية ... ونتيجة المعمودية الخلاص والولادة

الجديدة .. مع أن الخلاص والميلاد الثانى كلاهما بالمعمودية إلا أنه لابد من الكلمة أولاً لأنها هى التى تقود إلى الإيمان وبالإيمان المعمودية .. لذلك قال الرسول: "ولدنا بكلمة الحق". ويقول أيضاً "مولودين بكلمة الحق" على اعتبار أن الكلمة هى الصل الذى قاد إلى كل هذا.

أما قول الرسول بولس عن الكنيسة "مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ" (اف5: 26) .. فمعناها أن هذا التطهير تم بالمعمودية (غسل الماء) بالكلمة أى التبشير والكرازة وخدمة الكلمة التى من نتائجها كان الإيمان ثم المعمودية. وهنا نلاحظ قوله: "يغسل الماء بالكلمة" ولم يقل بغسل الماء الذى هو الكلمة، ولو كان غسل الماء يعنى الكلمة ما كان هناك داع لهذا التكرار، إنما غسل الماء بالكلمة معناه غسل الماء الذى تم نتيجة لعماد الكلمة، فلولا الكلمة ومفعولها ما أقبل الناس إلى غسل الماء أى المعمودية.

أما من جهة ما ورد فى (1بط1: 23) بخصوص عبارة: "مولودين.... الله"، كذلك ما ورد فى (يع1: 18): "شاء فولدنا بكلمة الحق ...". فنلاحظ فيهما أنه لم يذكر عبارة "الإيمان" فهل الكلمة وحدها كافية للميلاد الثانى بدون إيمان؟!. لم يتكلم هنا عن الإيمان لأنه مفهوم ضمناً. والأشياء المفهومة ضمنا لا داعى لتكرارها.

إن الكرازة لها أهميتها ولا ينكر أحد أهمية خدمة الكلمة، ولكن لا نستطيع مطلقاً أن نقول أنه يمكن لأناس أن يكونوا: "مولودين بكلمة الحق" سواء آمنوا أم لم يؤمنوا.. هكذا أيضاً المعمودية.

س. ما مركز الماء فى الخلاص والميلاد الثانى؟

ما ورد فى (1بط1: 23) "مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى، بِكَلِمَةِ اللهِ الْحَيَّةِ الْبَاقِيَةِ إِلَى الأَبَدِ"، كذلك ما ورد (يع1: 18) "عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ" **لم يذكر فى الآيتين السابقتين، عبارة**

الماء بصورة صريحة إلا أنه جاء ذكر عبارة: "**الماء**" صراحة كما فى (يو3: 5) "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ".

كما أن المقصود بعبارة الماء ماءً حقيقياً كما فى ورد عن إيمان كرنيليوس. فقد ظهر له الملاك. كذلك رؤيا للقديس بطرس، كما ورد فى (أع10: 44): "فَبَيْنَمَا بُطْرُسُ يَتَكَلَّمُ بِهذِهِ الأُمُورِ حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ". ومع ذلك نجد القديس بطرس يقول (اع10: 47، 48) "«أَتُرَى يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ حَتَّى لاَ يَعْتَمِدَ هؤُلاَءِ الَّذِينَ قَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ كَمَا نَحْنُ أَيْضًا؟» وَأَمَرَ أَنْ يَعْتَمِدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ. حِينَئِذٍ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ أَيَّامًا". كذلك ما ورد عن معمودية الخصى الحبشى: "وَفِيمَا هُمَا سَائِرَانِ فِي الطَّرِيقِ أَقْبَلاَ عَلَى مَاءٍ، فَقَالَ الْخَصِيُّ:«هُوَذَا مَاءٌ. مَاذَا يَمْنَعُ أَنْ أَعْتَمِدَ؟» فَقَالَ فِيلُبُّسُ: «إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ يَجُوزُ». فَأَجَابَ وَقَالَ:«أَنَا أُومِنُ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللهِ». فَأَمَرَ أَنْ تَقِفَ الْمَرْكَبَةُ، فَنَزَلاَ كِلاَهُمَا إِلَى الْمَاءِ، فِيلُبُّسُ وَالْخَصِيُّ، فَعَمَّدَهُ" (أع8: 36-38).

س9: هل من الأفضل أن نقول أن المعمودية قيامة مع المسيح وليس موتاً لأن الموت لا يفيدنا بل يضرنا، وإنما القيامة هى التى تفيد؟

المعمودية هى موت مع المسيح وقيامة معه، كما شرح الرسول فى رسالته إلى أهل رومية: "لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ. عَالِمِينَ هذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ، كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا لِلْخَطِيَّةِ. لأَنَّ الَّذِي مَاتَ قَدْ تَبَرَّأَ مِنَ الْخَطِيَّةِ. فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ، نُؤْمِنُ أَنَّنَا سَنَحْيَا أَيْضًا مَعَهُ" (رو6: 5- 8). فى هذا الأمر لا يجوز لإنسان أن يعتمد على فكره ويخرج عن تعليم الكتاب قائلاً: إن الموت لا يفيدنا بل القيامة، وهوذا الكتاب يقول عن المعمودية "أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ، [4]فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟" (رو6: 3،4). كما يكرر هذا المعنى فى رسالته إلى كولوسى فيقول:"مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ بِإِيمَانِ

عَمَلِ اللهِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (كو2: 12). فى هذا النص نرى المعمودية موتاً وقيامة معا .. حقاً إن الذين يحتقرون الموت مع المسيح لا ينالون بركة قيامته.

س10: لماذا الموت فى المعمودية ؟ وما أهميته؟

1.ليكون لنا شركة مع السيد المسيح، فالرسول لم يقل فقط أنه يدخل فة قوة قيامته وإنما قال: "لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ" (فى3: 10)، كما قال فى هذا أيضاً: "مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ، فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي"(غل2: 20) وعبارة الموت مع المسيح تتكرر كثيرا فى (رو6).

2.لابد للإنسان فى المعمودية أن تموت طبيعته الفاسدة، لكى يأخذ طبيعة أخرى جديدة، وهذا ما يعبر عنه الرسول بصلب الإنسان العتيق فى المعمودية فيقول فى نفس الفصل من الرسالة إلى رومية: "عَالِمِينَ هذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ، كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا لِلْخَطِيَّةِ. لأَنَّ الَّذِي مَاتَ قَدْ تَبَرَّأَ مِنَ الْخَطِيَّةِ" (رو6: 6، 7). هنا فائدة الموت، وليس الموت ضرراً، كما يظن البعض، فإن طبيعتنا الفاسدة من الخير لها ولنا أن تموت لكى نقوم بطبيعة أخرى على صورة الله أما الطبيعة الفاسدة فليست لها قوة القيامة مع المسيح فمن الضرورة أن يموت الإنسان فى المعمودية لكى يوهب نعمة القيامة.

3.نحن فى شركة الموت مع المسيح فى المعمودية، نعترف ضمنا أننا كنا تحت حكم الموت (أمواتاً بالخطية) وأن المسيح قد مات عنا ودفن ولذلك فنحن نعتمد لموته ما دامت أجرة خطيتنا هى الموت.

4.من البديهى أن القيامة معناها القيامة من الموت، فالذى يقوم مع المسيح فى المعمودية هو بالضرورة الذى مات ليقوم، لنه إن لم يمت فكيف يقوم إذن؟!!

س11: كيف يعتمد إنسان ليخلص من الخطية الأصلية [الجدية] إن كان قد ولد من والدين قد تعمدا وتخلصا من تلك الخطية؟

إن حكم الموت لم نرثه من الوالدين المباشرين حتى نخلص منه بمعموديتهما، إنما حكم الموت قد ورثناه من آدم وحواء مباشرة، من الإنسان الأول، وذلك لأننا كنا فى صلب آدم حينما فسدت طبيعته، وحكم عليه بالموت فأصبح كل ما فى صلبه مائتا ونحن خرجنا من صلب آدم تحت حكم الموت، ولذلك أصبح حكم الموت هو على كل ذرية آدم وليس فقط على قايين وهابيل وشيث ... إلخ. فى ذلك يقول الكتاب: "كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ" (رو5: 12). ويقول أيضاً:"لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ" (1كو15: 22). إذن الموت كان حكماً على البشرية كلها لأنها ذرية آدم، يولد كل إنسان محكوما عليه بالموت إذ كان فى صلب آدم حينما حكم عليه الموت.

كذلك يجب أن نعلم أن الخلاص من الموت هو خلاص شخصى، لكل فرد على حده[1] دون النظر إن كان والده قد نالا الخلاص أم لم ينالاه، وهذا الخلاص يحتاج إلى التوبة والإيمان بدم المسيح والمعمودية وباقى وسائط النعموة، ومع ذلك لا يوجد والدان بدون خطية. فى ذلك صدق المرتل فى المزمور حينما قال: "لأنى هأنذا ... حبلت" (مز50).

فالشخص يولد فى فساد الطبيعة البشرية، إلى أن يعتق من عبودية الفساد: "لأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللهِ" (رو8: 21) ولكن متى ستعتق من هذا الفساد؟ يقول الرسول عن جسدنا: "يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ. يُزْرَعُ فِي هَوَانٍ وَيُقَامُ فِي مَجْدٍ. يُزْرَعُ فِي ضَعْفٍ وَيُقَامُ فِي قُوَّةٍ ..." (1كو15: 42-53).. ومتى؟ حينما يبوق فيقام الأموات.

س12: هل المعمودية تعاد؟ ألسنا نقول فى قانون الإيمان [نؤمن بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا]؟ ألم يقل الكتاب المقدس [معمودية واحدة] "إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ" (أف4: 5)؟

---

1 هل يمكن أن نمنع طفلاً من التطعيم ضد الأمراض على اعتبار أن والديه قد أخذا هذا التطعيم سابقاً.

ج12: نعم قد قال الكتاب (معمودية واحدة) ولكن ليتنا نقرأ الآية كاملة حيث تقول "إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ" (اف4: 5). فحيثما يوجد الإيمان توجد معه المعمودية الواحدة، ولذلك نحن لا يمكن مطلقاً أن نعيد معمودية إنسان تعمد فى كنيسة لها إيماننا الأرثوذكسى، كذلك المعمودية ينبغى أن يقوم بها كاهن شرعى له كل سلطانه الكهنوتى الذى يسمح له بإجراء سر المعمودية المقدس، مؤمنا بكل فاعلية هذا السر..

فمثلاً الكنائس التى لا تؤمن بسر الكهنوت وليس لديها كهنة، كما لا تؤمن بأن المعمودية سر، ولا تؤمن بفاعلية المعمودية كما نؤمن فكيف نقبل معموديتها.. ونفس الوضع مع الكنائس التى تؤمن بسر المعمودية وفاعليته وبسر الكهنوت، ولكنها مغلقة علينا بحروم الآباء ينبغى أن تزال الحروم أولاً ثم نقبل أسرارها الكنسية.

س13: ما الفرق بين معمودية يوحنا المعمدان ومعمودية التلاميذ قبل القيامة؟

لم تكن تلك المعموديات سوى رموز للمعمودية التى أسسها السيد المسيح، فهذه كلها للتوبة والاستعداد (قبل القيامة وحلول الروح القدس) أى لم تكن ذبيحة الصليب قد قدمت ولا انحدر الروح القدس، ولا محيت اللعنة القديمة.

كما أن يوحنا المعمدان قال بتدقيق أنه أتى لينذر بمعمودية التوبة فى البرية (مر1: 4)، ومن ثم كانت معمودية تفتح طريقاً لمعمودية المسيح[1]. إذن لا فرق بين معمودية التلاميذ ومعمودية يوحنا لأنهما كانتا للتوبة. فالمعمودية لم تأخذ قوتها إلا بعد موت الفادى وقيامته وحلول الروح القدس لأنها مثال موته ودفنه وقيامته.

س14: ما دور الروح القدس فى سر المعمودية؟

1 القديس يوحنا ذهبى الفم: تفسير إنجيل متى، (مت**10**: **1-2**).

يقول بولس الرسول: "بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ - خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تى3: 3–5) وغسل الميلاد الثانى هو المعمودية وتجديد الروح القدس هو عمله بعد حلوله على المؤمن – بعد العماد – فى سر التثبيت (الميرون).

فالروح القدس يقوم بعملية التجديد: من خلال: "أَنْ تَخْلَعُوا مِنْ جِهَةِ التَّصَرُّفِ السَّابِقِ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ الْفَاسِدَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِ الْغُرُورِ، وَتَتَجَدَّدُوا بِرُوحِ ذِهْنِكُمْ، وَتَلْبَسُوا الإِنْسَانَ الْجَدِيدَ الْمَخْلُوقَ بِحَسَبِ اللهِ فِي الْبِرِّ وَقَدَاسَةِ الْحَقِّ" (أف4: 22–23). إذن: "الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا" (2كو5: 17).

فالروح القدس يعمل فى المعمودية بحلوله على الماء – فى جرن المعمودية – فيصير ماءً نارياً يمنحه خاصية قادرة على منح المُعمد طبيعة الحياة الجديدة الأولى التى ولد بها (مز50).

س15: ما ثمار المعمودية فى حياة المُعمد؟

هناك عدة ثمار لسر المعمودية فى حياة المُعمد تتمثل فى التالى:

1. **تمنح نعمة التقديس والتبرير وغفران الخطايا الجدية والفعلية:** وهى التى ارتكبت قبل العماد (اع2 : 38، 1بط3 :21، أف5 :27، 1كو6 :11) أى أنه بالمعمودية نعتق من الخطية الجدية (التى ورثناها من آدم) كما قال الكتاب: "من آمن واعتمد خلص" (مر16:16). أى أن نعمة هذا العمل الروحى السرى العجيب تتم تحت شكل الماء البسيط، والكتاب المقدس يعطينا مثال فى تطهير نعمان السريانى من برصه بمجرد غطسه فى مياه نهر الأردن وهذا يعطى برهاناً ملموساً على إمكانية تطهير الخاطىء من برص الخطية بماء المعمودية.

فى ذلك يقول القديس كيرلس الأورشليمى: "الماء يغمر المعمد من الخارج والروح يعمد النفس داخلياً بلا انقطاع" ... كما يقول أيضاً: "انسكاب الروح على الماء باستدعاء الكاهن، والحمامة التى ظهرت عند عماد المسيح هى بمثابة إصبع تشير للحاضرين عن ابن الله، ولكى

تتعلم أن الروح (الروح القدس) يأتى عليك عندما تغطس تحت الماء كأنه قبر، تدفن وتغطس كل إنسانيتنا القديمة، وبعد ذلك تطفو وتخرج إنسان جديداً".

كما يقول القديس أغسطينوس (354 – 430): "من يترك الحياة حالاً (يموت) بعد المعمودية لم يبق عليه شيء لأن كل شيء قد غفر له".

وفى ذلك يقول أيضاً أنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين، فى القرن العاشر الميلادى: "بالمعمودية ينعتق الإنسان من سلطان إبليس ... بها يتم غسل الجسد وتطهير النفس: "مطهراً إياها بحميم الماء بالكلمة (أف5: 25–26)، (بصلوات الكاهن)، وقد قال القديس حنانيا لشاول الطرسوسى (بولس فيما بعد): "الآن لماذا تتوانى قم واعتمد واغسل خطاياك" (اع22: 16) وقال الرسول بولس: "وَهكَذَا كَانَ أُنَاسٌ مِنْكُمْ. لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ، بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا" (1كو6: 11).

والقديس يوستينوس الشهيد (110 – 165م) يقول: "نغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا، وهكذا نبتدىء أن نعيش القداسة".

كما يقول العلامة القديس إكليمنضس الإسكندرى: "العماد هو حميم لأننا به نغسل الخطايا".

2. تمنح نعمة الميلاد الثانى، الميلاد الروحى:

أى أن الله قد أوجد المؤمن المعمد وجوداً – من الماء والروح القدس – بالمعمودية، وإذا كانت الكائنات الحية قد خلقت من الماء فقد أراد الله أن يأخذ ابن آدم وجوداً جديداً من الماء، ونعنى به وجوداً روحياً إلهياً يستحق الملكوت، كما أكده فى حديثه مع نيقوديموس (يو3 : 3 – 9). كما يقول الروح القدس على لسان القديس يعقوب: "شَاءَ فَوَلَدَنَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلاَئِقِهِ" (يع1 : 18).

3. تمنح المعمودية للمؤمن نعمة التبنى لله الآب، واتحاده بأعضاء جسد المسيح الكنيسة.

تمنح المعمودية للمؤمن الذى ينال سر المعمودية، نعمة التبنى لله الآب، واتحاده بأعضاء جسد المسيح الكنيسة، ووارثة السماء فى ذلك يقول الكتاب المقدس: "لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ: لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غل3 : 27).

وقال أيضاً فى (غل4 :7) "إِذًا لَسْتَ بَعْدُ عَبْدًا بَلِ ابْنًا، وَإِنْ كُنْتَ ابْنًا فَوَارِثٌ لِلهِ بِالْمَسِيحِ". كما يقول الوحى الإلهى: "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ، يَهُودًا كُنَّا أَمْ يُونَانِيِّينَ، عَبِيدًا أَمْ أَحْرَارًا، وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحًا وَاحِدًا" (1كو12 :13).

س16. هل كان السيد المسيح محتاجاً لمعمودية يوحنا المعمدان؟ ولماذا اعتمد منه؟

بالطبع لا ولم تكن معمودية الفادى مثل معمودية باقى البشر الخطاة، وقد أشار السيد المسيح إلى أحد أهدافها بقوله: "لنكمل كل بر". أى ليربط نفسه بالتائبين، مه أنه "هو القدوس البار" لكى يخلصهم جميعاً. وأيضاً لكى يتم الناموس الطقسى القديم.

كما يرى البعض أنها بداية لقيامة بالخدمة العلنية، وذلك بممارسة وظائفه الثلاث، كملك ونبى ورئيس الكهنة الأعظم، لكى: "يقدم نفسه ذبيحة للآب نيابة عن البشر الخطاة".

وكانت الشريعة الموسوية تتطلب أن يدعى المرء للخدمة الدينية فى سن الثلاثين (عد4:3). وهى السن التى بدأ بها الرب يسوع خدمته الجهارية (لو3 : 23) "وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي".

كذلك تعمد الرب يسوع فى نهر الأردن مثل باقى الشعب، فى ذلك الوقت، لكى يكون فادينا الصالح مثالاً عملياً للمؤمنين.

كذلك كان من أهداف هذا العماد إظهار سر الثالوث القدوس إذ لما اعتمد الفادى حل عليه الروح القدس فى هيئة حمامة (رمزاً لوداعته وبساطته وبرارته) ليكون كاهناً إلى الأبد على طقس ملكى صادق، كما يقول المزمور: "أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ: «أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادَقَ»" (مز110: 4). وليكرس نفسه لعملية الفداء العظيم ومن ثم يسمى بعيد الظهور الإلهى (مت3:16 – 17، يو1: 29 – 31).

لقد تعمد الرب يسوع لكى يعلن أن إرساليته يوحنا المعمدان هى من الله، ولكى يثق الناس فى شهادة يوحنا المعمدان عن المسيح (يو1 :29): "... وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ، فَقَالَ:«هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!".

كما يظهر تواضع المخلص العملى فى وقوفه آخر صفوف المتقدمين للعماد (لو3: 21)" وهو درس لإنكار الذات وعدم مزاحمة الآخرين أو محاولة أخذ نصيبهم أو الارتفاع عليهم بما للمرء من مركز رفيع أو من سلطة ونفوذ (وهو درس عملى لكل نفس).

كذلك أعطانا الفادى درساً عملياً آخر وهو أن الصلاة هى مفتاح السماء يسجل البشير لوقا ما نصه "وَلَمَّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشَّعْبِ اعْتَمَدَ يَسُوعُ أَيْضًا. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي انْفَتَحَتِ السَّمَاءُ" (لو3 :21) ... ولاشك فإن "طَلِبَةُ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا" (يع5 :16).

س17. هل ثمة ضرورة للعماد فى العهد الجديد؟

المعمودية لها ضروريتها لخلاص النفس، كما أكده الرب بنفسه هذا الأمر بقوله: "مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر16:16). وكذلك قول الروح القدس على فم الرسول بطرس: "تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (أع2 :38). وكذلك قول الروح القدس على فم القديس بولس: " بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ - خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تى3: 5). وقد أكد الرب على أهمية دور المعمودية بقوله: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ" (يو3:3).

س18. أين يذهب الأطفال الذين يموتون بدون عماد؟

لم يرد فى الكتاب إشارة إلى ذلك، ولكن يرى بعض اللاهوتيين أنهم يكونون فى حالة متوسطة[1] فهم لن يعذبوا لأنهم لم يفعلوا شراً يستحقون عليه العذاب ولا يتنعمون كل التنعم لأنهم لم يتقبلوا العماد الذى هو شرط أساسى للنجاة من العقاب الأبدى (مر16:16).

كما قال آخرون أنهم لا يرون الرب يسوع بسبب الخطية الأصلية التى ورثوها من آدم، ولم تغفر فى المعمودية، وفى نفس الوقت لا يعذبون. وفى ذلك يقول القديس غريغوريوس الكبير: "إنهم لا يمجدون ولا يعذبون لأنهم وإن كانوا غير مستنيرين وغير مقدسين بالمعمودية لم يخطئوا خطية شخصية، ولذلك لا يستحقون كرامة ولا قصاصاً". وهذا الرأى أيضاً ذكره القديس أغسطينوس.

من هنا تتضح مسئولية الأسرة عن تأخير المعمودية، ومن المعروف أن الأم يمكن أن تذهب إلى الكنيسة لتعميد طفلها بعد40 يوماً من ولادة الطفل الذكر، وبعد80 يوماً من ولادة الطفل الأنثى كما ورد فى (لا12: 1– 5) بعد قيام الكاهن بصلاة تحليل المرأة. كما يمكن

[1] ليس فى مكان متوسط، لأنه يوجد مكان متوسط بي الملكوت وجهنم، مثلما يعتقد خوتنا الكاثوليك فى عقيدة المطهر.

قيام الإشبين بالذهاب إلى الكنيسة لتعميد المولود فى حالة الخوف عليه من الموت، على أن تبقى الأم فى رواق الموعوظين إلى اكتمال المدة المحددة للمولود، وبعدها تدخل الكنيسة، بعد أن يتم صلاة التحليل لها.

كما حددت القوانين البكنسية فرض عقوبة على الآباء والأمهات بإهالمهم فى حالة موت الطفل بدون عماد، بإن يصوم الإنسان فترة معينة، أو يصلى مع الميطانيات حسب ما يحدده أب الاعتراف. فى هذا الأمر يقول القديس غريغوريوس: "يجب أن يمنع من تناول القربان المقدس الذى هو عربون الحياة الأبدية". كما يقول الأنبا أثناسيوس الأسقف فى القرن الثانى عشرة، بضرورة حرمان المتهاون فى عماد طفله من التناول فترة معينة.

س19. ما المقصود بصلاة تحليل المرأة؟ ومتى وأين تتم؟

عندما تريد المرأة دخول الكنيسة دون أن تقوم بعماد طفلها – الذى من المفترض أن يكون قد تعمد بالكنيسة، مع الإشبين الذى أتى به قبل انقضاء المدة المحددة – أو أن يكون قد تعمد المولود فى البيت لظروف مرضية طارئة، أو أن يكون قد مات قبل أن يعمد ... إلخ. وفى ذلك يذكر العلامة السريانى الدويهى: "إن هذه الصلاة للمرأة تسمى فى سوريا وروسيا (صلاة الباب) لأن هذا الطقس للمرأة يمارس على باب الكنيسة حيث يصلى الكاهن للمرأة صلاة التحليل والبركة، ثم يدهنها بالزيت ثم تعترف بخطاياها وتتناول من السر الأقدس، وإذا ما دخلت الأم لعماد طفلها تتم صلاة التحليل هذه – للأم – قبل عماد طفلها مباشرة".

س20. ما رأي الكنيسة فى الآباء والأمهات الذين ينذرون تعميد أطفالهم فى مناسبات معينة؟ أو فى أديرة أو أماكن بعيدة؟

ينبغى توعية الوالدين **<u>بعدم النذر للعماد فى مكان معين</u>**، وقد لا يستطيع الوالد الذهاب فعلاً لتلك الأماكن البعيدة، نظراً لبعد المسافة، أو لتغيير الطقس الجوى، أو السفر المكلف فى

بعض الأحيان، وبالتالى يتأخر تعميد الطفل، وفى ذلك من خطورة على خلاصه، إذ قد يتعرض للموت فجأة، وتتحمل الأسرة المسئولية أمام الله.

أما إذا نذر أحد الوالدين تعميد ابنه أو ابنته فى كنيسة أو دير باسم قديس معين، فإنه يمكن أن يتم التعميد فى أقرب كنيسة تحمل نفس اسم القديس وبذلك لا يتحلل الإنسان من نذره. علماً بأن كل الأماكن صالحة للتعميد، وكل الآباء هم كهنوت واحد يقومون بنفس الطقس، وينال المعمد نفس بركات سرى العماد والميرون فى أى مكان وزمان.

ينبغى أن يعرف أن التعميد فى المناسبات قد يجعل هناك خلل بالطقس للمعمدين. فمثلاً فى حالة وجود أعداداً كبيرة جداً، كرشم الطفل 36 رشماً، فهل يستطيع الكاهن أن يقوم بذلك لمئات من المتقدمين للعماد فى نفس اليوم؟ وقد لوحظ سرعة التعميد وقد لا تكتمل الرشومات فى تلك المناسبات.

س21. ما البركات التى ينالها المُعمد؟

- يولد ميلاداً جديداً ويكتب الله اسمه فى سفر الحياة الأبدية.
- يخصص له الرب ملاكاً حارساً يرعاه ويقوده فى العالم وفى الخطر ينقذه (ويسجل أعماله وأقواله وأفكاره).
- يصير ابناً لله ويستحق الميراث الأبدى إذا ما سار بالأمانة والتقوى ويصبح غرساً جديداً ويكون من حقه التمتع بممارسة أسرار الكنيسة ووسائط النعمة الأخرى له. وفى ذلك يقول القديس باسيليوس الكبير: "يوحنا كان ينادى بمعمودية التوبة والرب يسوع ينادى بمعمودية التبنى".
- التبرير وغفران الخطايا والعتق من عقوبة الخطية (الهلاك الأبدى). يعطى الاستنارة للذهن (رو12: 2، عب6: 4 – 6) ويقول القديس يوستينوس الشهيد {هذا الاغتسال – أى المعمودية – يسمى تنويراً لأن الذين يتعلمون هذه الأمور يستنيرون فى أفهامهم}

ويقول موسيهم عن المعمودية والتناول: لا ينبغى أن يعتبران طقسان أو كان لهما معنى رمزى فقط بل كانت لهما فاعلية مقدسة للعقل.

- عن طريق هذا السر تفتح لنا أبواب الفردوس ويؤهلنا لملكوت السموات. ويقول القديس ديديموس الضرير (مدير المدرسة الإسكندرية المرقسية (311 – 396 م): "إن الروح القدس من حيث هو الله يجددنا فى المعمودية ... ويجعلنا وارثين معه ويمنحنا الفردوس ويجعلنا أكثر كرامة من الملائكة (إن حافظنا على حياة القداسة) وهو يطفىء نار الجحيم فى المياه المقدسة مياه جرن المعمودية".
- كما أن الإنسان يولد من بطن أمه أعمى روحياً (مز50) بسبب وراثة الخطية الأصلية ولن يعاين أحد الملكوت مالم يغتسل أولاً فى جرن المعمودية المرموز إليه فى قصة المولود أعمى الذى طلى السيد المسيح عينيه بالطين واغتسل فى بركة سلوام فعاد بصيراً (يو9) ولهذا يتلى هذا الفصل من الإنجيل يوم أحد التناصير.

س: ما موقف الكنيسة من الأطفال اللقطاء وخاصة من جهة ممارسة سر المعمودية لهم من عدمه؟

الكنيسة تريد خلاص جميع النفوس التى تعيش فى هذا العالم ومن ثم فهى تقوم بتعميد كل نفس للتمتع بالبركات السابق الإشارة إليها، ولهذا فهى تقوم بالطبع بعماد اللقطاء وتضمهم إلى شركة الكنيسة المقدسة وتحنوا عليهم وتحبهم وترعاهم فلا ذنب لهم فيما ارتكبه غيرهم مع أمهاتهم.

وقد حدد مجمع قرطاجنة (بالقانون 83) بشأنهم نصاً: "إذا لم يوجد شهود حقيقيون بأن الأطفال اللقطاء قد اعتمدوا فعلاً وأن هؤلاء الأطفال (الصغار) لا يقدرون أن يجابوا عن السر المعطى له فقد تقرر بأنه يجب – بدون أدنى شك – أن يّعَمدوا لكى لا يحرمهم الشك من التطهير الذى يمنح لهم بواسطة هذا السر المقدس وبذلك يصيرون أطهاراً مما فعلته أمهاتهم من شر.